جون بانفيل

رسالة نيوتن

«فصل إضافي»

روايات عالمية ٩٩

ترجمة

د. فاطمة الجيوشي

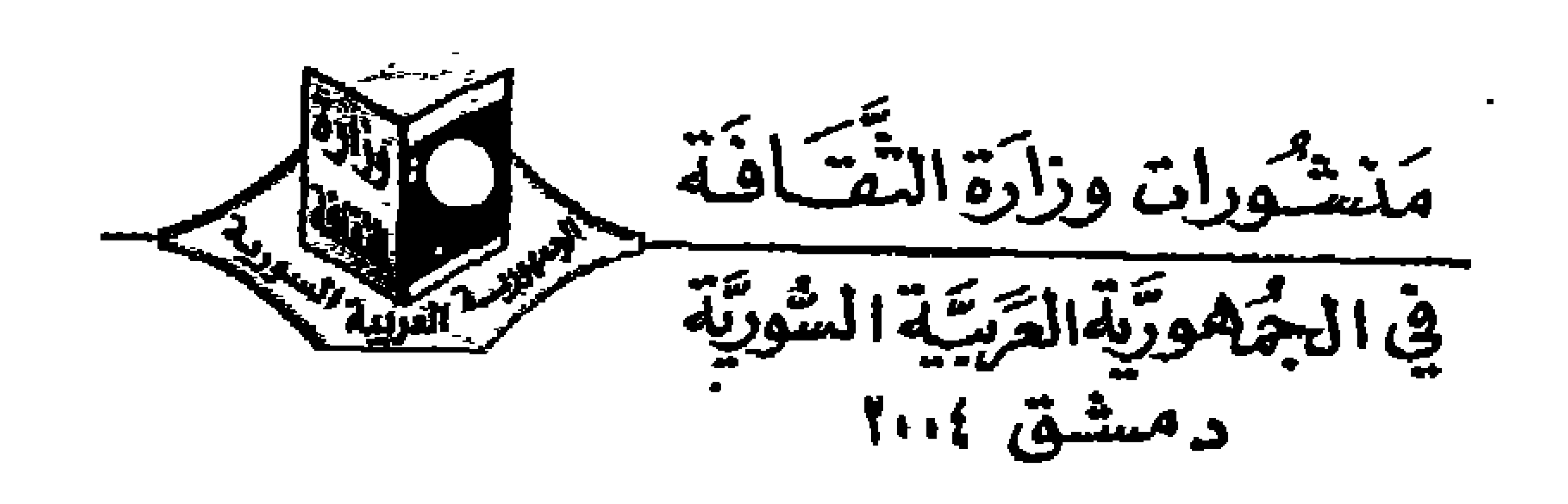
جون بانفيل

رسالة نيوتن

«فصل إضافي»

ترجمة

د. فاطمة الجيوشي



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٤

العنوان الأصلي للكتاب :

THE NEWTON

LETTER

JOHN BANVILLE

رسـالة نيوتـن : فصل إضافي = The Newton letter /
جون بانفيل ؛ ترجمة فاطمة الجيوشي .- دمشق : وزارة الثقافة
، ٢٠٠٤ .- ٨٠ ص ؛ ٢٤ سم.- (روايات عالمية ؛ ٩٩) .

١- ٨٢٨ ب ا ن ر ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- بانفيـل ٥- الجيوشي ٦- السلسلة
مكتبة الأسـد

روايـات عالميـة

«٩٩»

إلـــى

جهـاد ومـاريـا ومنـــار

جــون بـانـفـيـل

ولـد جـون بانفـيـل فـي وكسفورد، فـي إيرلندا عـام ١٩٤٥، نشـر كتـابه الأول «لـونـغ لانكين» Long Lankin عـام ١٩٧٠ تبعـه كتـاب «التكاثر الليلي» Night Spawn بعد عام واحد.

ونُشـرت قصة ثالثة «بيرشوود» Birchwood عام ١٩٧٣ . نال عليها جـائزة «البنوك المتحدة الإيرلندية» في العام نفسه كما نال مؤلفها منحة «ماكولي الجامعية» من «المجلس الإيرلندي للفنون».

وعـام ١٩٧٦ نال منحـة جـائزة جيـمس نيت بليك لكتابه «الدكـتـور كـوبر نيقوس» بوصفه أفضل كتاب روائي نُشر في ذلك العام، ونالت روايته التالية «كبلر» جائزة «الجوارديان» للرواية عام ١٩٨١ .

رسالة نيوتن هي كتابه الأحدث، كما نشر بانفيل عدداً من القصص القصيرة في المجلات الأدبية.

متزوج، يعيش في هاوث، عند الجهة الشمالية لخليج دبلن.

أبدو وكأنني لم أكن سوى صبي يلعب عند الشاطئ، أسلي نفسي بين الفينة والفينة بالعثور على حصاة ملساء أكثر من غيرها أو على صدفة أجمل من المعتاد، بينما يمتد أمامي محيط الحقيقة الفسيح والمحجوب عني.

السير إسحق نيوتن

الكلمات تخونني، ياكليو. كيف تعقبت أثري، هل تركتُ بقع دم على الثلج؟ لا أحاول الاعتذار. وبدلاً من ذلك أريد ببساطة أن أشرح بحيث يمكن لكلانا أن يفهم ببساطة! أحب هذا.

لا، لست مريضاً، ولم أصَب بانهيار عصبي. لعلك تقولين، لعلي أقول، إنني انسحبت من الحياة. لأجل محدود.

تخليتُ عن كتابي. ربما تظنين أنني جُننت. سبع سنين كرستها لها سبع سنين! كيف أجعلك تفهمين أن مثل هذا المشروع صار الآن مستحيلاً بالنسبة إلي، بينما، لا أفهم أنا نفسي في الواقع؟ هل سأقول إنني فقدت إيماني بأولوية النص؟ أناس حقيقيون يعترضونني، وحتى الأشياء والمناظر الطبيعية.

كل شيء يتشعب أفكر مثلاً في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى (فرن). كنت أنظر من القطار إلى الخلفيات المحجوبة للأشياء، أنابيب التصريف، والنوافذ المحطمة والحدائق الغوغائية، مع حبال الغسيل، رجل يعمل بالرفش عالياً عند خليج «كيليني» شراع سُدّد في زاوية نحو العالم، وسحابة بيضاء كانت تعبر الأفق ببطء. ما علاقة هذا بأي شيء؟ غير أن مثل تلك القصاصات المتذكَّرة تبدو لي وفيرة الدلالة، إنها في آن معاً، مبتذلة وفريدة، كما علامات على مسرح الجريمة. ولكن كل شيء في ذلك اليوم ما يزال بريئاً براءة السماء الزرقاء نفسها، فعما تبرهن؟ ربما هذا بالتحديد: براءة الأشياء، عدم تورطها في شؤوننا ومع ذلك بتشابهها، أنابيب الصرف الصحي وتلك السحابة تحتاج إليَّ أكثر مما أحتاج إليها إلى حد اليأس. تدركين صعوبتي.

كان بإمكاني أن أكتب لك في أيلول الماضي قبل أن أبتعد مع اعتذار رقيق. كان بإمكانك أن تفهمي، على الأقل أن تتعاطفي بالتأكيد، ولكن كليو، عزيزتي كليونا، لقد كنت معلمتي وصديقتي، وكنت ملهمتي زمنًا طويلاً. وليس بقدرتي أن أكذب عليك. الأمر الذي لا يعني أنني أعرف ما هي الحقيقة وكيف أخبرك بها. إنني مشوش الذهن. أشعر بأنني مضحك وعاطفي ومعرَّض بشكل مضحك. تسلقت إلى هذا العلو وليس بوسعي أن أرى كيف أهبط إلى الأرض والمشاهدون في الأسفل بعضهم أصابه الارتباك والباقون على وشك الانفجار بالضحك.

ما كان عليَّ أن أذهب إلى هناك. الاسم هو الذي جذبني. مزرعة فِرن! توقعت ـ أوه، توقعت أشياء كثيرة من كل صنف. بدا كأنه كومة كئيبة وجدران مقشورة عرَّش عليها اللبلاب، وزجاج النافذة التي تعلو الباب مهشّم، نوع من مكان حيث تتخيلين ابنة زوج مجنونة أقفلت عليها السقيفة. كان هناك درب من شجر الجميز ودرب ينحدر من التلة إلى القرية. كنت أستطيع رؤية دخان المدينة، ووراء هذا ثانية نتفة من البحر. عندما أفكر في ذلك، أفترض أنه كان تمامًا مثلما توقعت، في النظر إليه على كل حال.

في الحديقة استقبلتني امرأتان. إحداهما كانت بدينة وشقراء، والثانية فتاة هيفاء القامة سمراء الذراعين وضعت على رأسها قبعة شمسية بالية من القش. قالت الشقراء، أنهما رأتاني أثناء قدومي.

وأشارت إلى أسفل، إلى طريق التلة، افترضت أنها مدبرة المنزل، ولعل الفتاة ذات القبعة الشمسية تكون أختها. تصورتهما صامتتين بانتباه، تراقبانني وأنا أتقدم متلكئًا نحوهما، ولسبب ما أحسست بالرضا بعدئذ رفعت الفتاة قبعتها، لم تكن فتاة بل امرأة في منتصف العمر. أدركت الأمر بوضوح، ولكن بالأسلوب الخطأ. تلك المرأة كانت شارلوت لولس، أما البنت الشقراء الضخمة كانت أوتيلي، ابنة أخيها.

يقوم النزُل، كما كانتا تسميانه، على جانب الطريق في أقصى الدرب المؤدي إلى المنزل. في يوم من الأيام، كان يوجد هنا جدار وبوابة ذات أعمدة عالية، ولكن اندثر كل هذا منذ زمن بعيد، كما اندثرت أمجاد أخرى. صرَّ الباب. غرفة للنوم وصالون، ومطبخ صغير قذر، وحمام أصغر. تبعتني أوتيلي من غرفة إلى غرفة ويداها مدسوستان في الجيبين الخلفيين لبنطالها. أما السيدة لولس فقد انتظرت عند الباب. فتحت خزانة الصحون: أكواب مشعورة ومصيدة للفئران. كان هناك قطار عائد إلى المدينة في غضون ساعة، يمكنني العودة فيه لو أسرعت. كانت السيدة لولس تلمس بأناملها طرف قبعتها الشمسية ونظرت إلى شجرات الجميز. من ثلاثتنا وحدها الشقراء أوتيلي لم تُبْدِ أي ارتباك. وفي سيري بالقرب من شارلوت في الممر نشقت رائحتها الحليبية وألفيت نفسي أعرض عليها أجرة شهر مقدماً.

ما الذي انتابني؟ فرن تكاد بصعوبة أن تكون ذاك المكان لأحلامي الغامضة حيث قُذِفت بعيداً عن وباء حياة المدرسة. أردت وضع اللمسات الأخيرة لكتاب المبادئ الذي يخصني (Principia).

الزمن مختلف في الريف. كانت هناك لحظات اعتقدت فيها أنني أصبت بالذعر، مهجور في وسط أمسيات لا تنتهي. كان هناك ضجيج، شجار مستمر، عجول تخور، وجرارات تهدر وكلاب تنبح طوال الليل. أشياء تدب على السقف، وتخش تحت الأرض. كان هناك عش شحارير في شجيرات الليلك خارج نافذة الصالون حيث كنت أحاول الكتابة. كانت الشجرة تهتز من تنازعهم. وفي إحدى الليالي، قطيع ما، أبقار، خيول، لا أدري، أتت ودارت حول المرج، تتنفس وتتدافع مثل حشد تجمع استعداداً للهجوم.

لكن الطقس كان في آخر هذا الشهر من أيار، رائعاً مشمساً، هادئاً يشوبه الحزن. قتلت أياماً بطولها أهيم في الحقول. أحضرت معي كتباً تعرِّف بالأشجار والعصافير غير أنني لم أستطع إدراك مغزاها. ولم تكن الصور التوضيحية تتطابق

مع الأنواع الموجودة أمامي. كان كل عصفور يبدو مثل عصفور الزرزور. وسرعان ما هجرتني الحماسة. ربما بسبب إحساسي بأنني كنت متطفلاً. في وسط هذه المشاهد المضاءة بنور الشمس أحسست بأن لا علاقة لي بكل هذا، وكأنما كنت أنا نفسي مجرد فكرة، صورة توضيحية مؤسلبة وغير دقيقة، بشكل لا يدرك، لشيء ما كان فقط واقعًا في مكان آخر. بل أن صفحات مخطوطي، عندما جلست أقلبها بضجر، كان مظهرها غير مألوف وكأنها كُتِبَت، لا من شخص آخر، بل من صورة أخرى من ذاتي.

أتذكرين تلك الرسالة المجنونة التي كتبها نيوتن لجون لوك في أيلول ١٦٩٣ يتهم فيها الفيلسوف بشكل غير متوقع، أنه بلا أخلاق وأنه منحاز للفيلسوف هوبس، وأنه حاول توريطه مع النساء؟ أتخيل العجوز لوك يزرع الحديقه الكبيرة في واتس وحاجباه يرتفعان، ويرتفعان، وهو يحملق في تلك التهم الهمجية. في تلك التهم الوحشية الهمجية. أتساءل إذا كان أحس بالوخز الذي أحسست به عند قراءتي للجملة الأخيرة: إنني أكثر خدمك تواضعًا وأكثرهم سوء طالع. إسحق نيوتن. تبدو لي أنها أفضل الجمل تعبيراً عن ألم نيوتن وحيويته المضنية، تبدو لي أنها أفضل الجمل تعبيراً عندما أقارنها بالأسلوب الذي وقع فيه بعد أسابيع قليلة، بالاسم وحده، رسالة أخرى ومختلفة. ماذا حدث في الفترة الفاصلة، أية معرفة بزغت في ذهنه؟

فكرنا كثيراً، أنت وأنا، في انهياره العصبي في أواخر صيف ١٦٩٣. كان قد بلغ الخمسين من عمره وعمله الأهم صار وراءه، كتاب «المبادئ» وقانون الجاذبية، واكتشافاته في مجال البصريات. كان قد كرّس نفسه، أكثر فأكثر للدراسة التفسيرية للكتاب المقدس، ولذاك العمل الأكثر غموضًا في الخيمياء، الأمر الذي أربك كتّاب سيرته الذاتية (ارجعي إلى بوبوف وآخرين). إنه رجل عظيم الآن، ذو شهرة راسخة، وأوروبا بأسرها تكرمه. غير أن حياته كعالم قد انتهت. وبدأت عملية نحت النصب التذكاري: كان العالم يحوله إلى نُصُب لنفسه. كان بارداً، متعجرفًا، وحيداً، تستبد الغيرة بقلبه. ولم يبرأ من حقده على هوك بل اشتد واستمر حتى بعد وفاة منافسه العجوز. لقد كان...

انظري إلي وأنا أكتب التاريخ؛ العادات المتأصلة يصعب زوالها. كل ما أقصد هو أن الكتاب كان جيداً بما هو عليه، عليَّ وحسب أن أحكم بعض النهايات الفضفاضة وأكتب الخاتمة. ولكن في تلك الأسابيع الأولى في «فِرن» بدأ شيء ما يضل السبيل. ومع ذلك لم يتعد الأمر ما يسميه الأطباء وعكة عامة. كنت أركز مفتوناً بشكل مَرَضي، على الفصل الذي كرسته لانهياره العصبي، وعلى الرسالتين الموجهتين إلى لوك. أكان ذلك ثقلاً شعرت به هناك، كتلة صغيرة، قاسية بلا إيلام؟ مثل هذه الهواجس تبدو مضحكة بالطبع. ثمة لحظات كان يندمج فيها احتمال وضع اللمسات الأخيرة بشكل ما مع وسطي الجديد في لوحة كبيرة. أذكر يوماً عندما كنت داخل البستان. كانت الشمس تسطع، والأشجار في فترة ازدهارها. سيكون كتاباً رائعاً، غضاً، وواضحاً مثل ذلك المشهد الرائع أمامي. ستُصْعَق الأكاديميات، وستكونين فخورة بي، وستقدم لي جامعة كامبريدج منصباً كبيراً. أحسست بشعور غير عادي بالنقاء، بالبراءة الرقيقة. لابد أن نيوتن نفسه وقف ذات صباح في حديقة أمه في وولستورب عندما سقطت التفاحات اليانعة بالقرب من رأسه. التفت، عند سماعي صفقاً عنيفاً لأغصان صغيرة. كان إدوارد لولس يقف على جانب الدرب من خلال السياج، يضرب ساقه وراءه ليخلص ثنية بنطاله العالقة بغصن مقطوع. وعلى شعره سقطت ورقة شجر. سبق أن رأيته حول المكان ولكنها المرة الأولى التي رأيته فيها. كان عريض الوجه شاحبه. عيناه الزرقاوان ضيقتان وقلقتان. لم يكُ ضخم الجسم ولكنه يترك انطباعاً بالضخامة. قصير الرقبة وثخينها، كتفان عريضتان تدوران أثناء سيره كما لو كان عليه باستمرار التعامل مع عقبات منتشرة وناعمة في الهواء. عند وقوفي بالقرب منه استطعت سماع تنفسه مثل رجل يخفق بين حركة متعثرة وأخرى.

كان شعره التبنّي الذي وخطه الشيب برفق عند الفودين يشبه خوذة مصقولة؛ تلهفت للخروج إليه وإبعاد ورقة الغار العالقة في ثنية بنطاله. وقفنا معاً في العشب المبتل ننظر إلى السماء ونبحث عن شيء نقوله. أثنى على الجو. خشخش النقود في

جيبه. سعل. سمع صياحًا يصدر من بعيد، ثم من مكان أبعد، نداء مجيب. «آها» قال وقد شعر بالفرج؛ «رجال الفأر»! وغاص مبتعدًا عبر الشق، في السياج. بعد لحظة ظهر رأسه من جديد متمايلاً فوق المنحدر المعشوشب المحيط بالبستان. تصورته دائمًا هكذا، متواريًا خلف السياج، أو يمشي متثاقلاً عبر حقل بعيد، حزينًا، وغاضبًا إلى حدٍ ما، مثل رجل يحاول بإصرار تذكر جرائم الليلة الماضية.

سرت عائدًا عبر الدرب تحت شجرات التفاح ووصلت المرج، حقل محروث في الواقع. إلى جانب البيت ظهر شخصان ينتعلان جزمتين طويلتين ويرتديان معاطف سوداء بلا أزرار. أحدهما يحمل فرشاة طويلة الذراع والثاني يحمل دلوًا أحمر اللون. توقفت ونظرت إليهما يمران أمامي تحت شمس الربيع الساطعة، وفجأة باغتتني صورة كارثة، أشياء مصابة جريحة تعدو مسرعة بشكل دائري، جلود ممزقة، تشنجات، عيون مضناة تهيم في السماء الخاوية أو عبر السماء في اللانهاية. سرَّعت الخطى باتجاه المنزل من أجل متابعة عملي. ولكن الإحساس بالانسجام والمعنى الذي أحسست به في البستان كان قد تلاشى. لمحت شيئًا ما يتحرك في الخارج فوق العشب. خلته عصافير السنونو تطوف بحثًا عن الطعام، لأن شجرات الليلك كانت ساكنة. ولكنه كان جرذًا.

لم يكن جرذًا، وفي الحقيقة لم ألمح قط ما يشير إلى وجود فأر طوال المدة التي قضيتها في «فرن». إنها الفكرة وحسب.

ساعي البريد في الحرم الجامعي، المدعو لاب، والمصاب بالربو حمل لي لتوه رسالة من أوتيلي. لقد تمَّ القبض عليَّ الآن تقول. في رسالتها: إنها حصلت على العنوان منك. كليو، كليو، ولكنني لا أنكر سروري. مسرور تقول: لا بما تقول بل بالخربشة المنحدرة من زاوية إلى زاوية على الصفحات الزرقاء المهلهلة، فقد لمحت شيئًا منها، إهمالها، اندفاعها، وبراءتها التي لا تُمسّ. تريد مني أن اقرضها ثمن

الرحلة لتأتي لزيارتي! أستطيع أن أرى كلينا، نتهادى عبر الثلج الذي تسوقه الريح، نتبادل اللوم ونبكي ونتعانق في فرائين كما دبين قطبيين محرومين من الحب.

وصلتْ إلى مكان إقامتي غداة انتقالي إليه جالبة لي سلة مليئة بالبيض الأسمر. كانت ترتدي بنطالاً من المخمل المضلَّع وسترة صوفية من حياكة بيتية فقدت شكلها. شعرها الأشقر محزوم إلى الخلف بشريط مطاطي. حاجباها الشاحبان وعيناها الزرقاوان الشاحبتان يضفيان عليها مظهراً فقيراً. بيديها الموضوعتين في جيبها وقفت وابتسمت لي. تتسم بالبريق الطيب لكل البنات اللواتي يتصفن بالبدانة والجبن.

قلتُ: «بيض كبير».

تأملناها لحظة بصمت عميق.

قالت «شارلوت تربيها». «أقصد الدجاجات».

عدت إلى صندوق الكتب الذي كنت أفرغه. ترددَّتْ وهي تنظر حولها. الطاولة المربعة الصغيرة بالقرب من النافذة مغطاة بأوراقي. هل كنتُ أكتب كتابًا أم ماذا؟ وكأن مثل هذا الأمر يصعب الدفاع عنه. أخبرتها. «نيوتن» قالت، مقطبة: «ذاك الذي سقطت التفاحة على رأسه فاكتشف الجاذبية!» ثم جلست.

كانت في الرابعة والعشرين من عمرها. كان أبوها شقيق شارلوت لولس. مع زوجته إلى جانبه في ليلة جليدية، وكان عمر أوتيلي عشر سنوات، قاد سيارته إلى الحائط ـ «ذاك الحائط هناك» وترك البنت يتيمة. أرادت الذهاب إلى الجامعة لتدرس ماذا؟ صوتها، إصدار غريب من ذاك الإطار الضخم، كان مرهفًا وحساساً مثل المزمار، صوت مغنٍ، وتصورتها، تلك البنت الغريضة غير الجذابة، تقف بثوب مضحك أمام الأوكسترا يداها الصغيرتان الممتلئتان متشابكتان، تسكب عاصفة من أغنية تقطر حزنًا.

أين سكنتَ في دبلن؟ هل كان لديك شقة؟ ماذا كانت تشبه؟ لِمَ أتيت إلى هذا المكان الكئيب؟ أجبتها، لأنجز كتابي، ثم نظرت عابسة إلى الأوراق الملتفة بلطف في ضوء الشمس على الطاولة. عندها لاحظتُ شجر الجميز يتحرك بشكل ضعيف، يتحرك بالأحرى خلسة في الهواء المضيء، مثل راقصين يتدربان على خطوات في داخل رأسيهما ودار شيء ما في داخلي للحظة، وقلت، نعم، لإنجاز كتابي. ارتسم ظل في اتجاه الباب ولد قصير بالغ الهدوء، يقف هناك، يداه وراء ظهره، ينظر إلينا.

رأته أوتيلي، ونهضت بشكل مفاجئ. وبدون أية نظرة إلي أمسكت بيد الطفل ومضت.

* * *

وُلدتُ هناك في الجنوب، كما تعرفين. أجمل ذكرياتي عن هذا المكان كانت أيام مغادرتي له. أذكر رحلات عيد الميلاد في دبلن، كنت طفلاً أستقل القطار ليلاً، أنظر خلال الضباب المتشكل من نَفَسي على زجاج النافذة إلى الحدود الندية للمشاهد التي تتجمع عند بزوغ الفجر.

عند انعطاف النهر كان القطار يخفف سرعته ليجتاز جسراً معدنياً أحمر اللون. وراء النهر يمتد سهل إلى سفح تلة مشجرة، وعند هذا السفح يوجد بيت متوسط الحجم، منعزل ومربع الشكل ذو سقف شديد الانحدار. كنت أطوف في ذاك البيت الذي يخيم عليه الصمت وأتساءل، بفضول نهم عن هؤلاء الذين عاشوا هناك. من الذي صفف حطب الموقد هناك، وعلّق ذاك الإكليل المقدس، ترك تلك اللحظة. لقد أدركت بالطبع أن هذه الحيوانات المتوارية لا يمكن أن تكون مختلفة جداً عن حياتي. ولكن تلك هي النقطة الأساسية. لم أكن أبحث عن الغريب بل عن العادي المألوف، أي عن أكثر الألغاز غرابة وإثارة للحيرة.

أمامي الآن بيت آخر أنظر إليه. وأتساءل عنه مع شيء ما من اللهفة ذاتها. كان المكان أشبه بكوخ حارس. يقع على مسافة مئة، أو مئتين ياردة من البيت، ومع ذلك لم أكن أستطيع النظر إلى خارج نافذتي دون أن أشهد عملاً ما يجري هناك. وأيضًا كانت الأصوات في المكان تمنح ألفة منبهة. كنت أسمع بوضوح صخب اندلاع المياه المتكرر من مرحاض الطابق العلوي وأستهل نهاري بأخبار الصباح من المذياع في مطبخ شارلوت لولس. كنت أستطيع رؤية شارلوت نفسها، بجزمتها الطويلة وسترتها الصوفية القديمة وهي تحمل إلى الخارج إناء الطعام، إلى قن الدجاج. بعد ذلك تخرج أوتيلي بنشوة ناعمة ممسكة بيد كيوبيد(*) في طريقه إلى المدرسة، يحمل حقيبته مثل حدبَة على ظهره. كان إدوارد آخر الخارجين. كنت أجلس إلى عملي قبل أن أتجسس على عمله السري، يكتسي كل ذلك شكل مشهد ريفي مع زوج الراعي، والراعي، والطفل، والخادمة وأنا أخربش في بلورة كريستال، صورة «دامون» بعيون أضناها الأرق.

منذ البداية لاحظت نبالة المحتد. البيت الكبير، بدلات إدوارد المصنوعة من صوف التويد، شارلوت بجمالها النحيل الذي لا تخفيه الملابس الفضفاضة، وأيضًا أوتيلي بقامتها الضخمة الخرقاء، بدا هذا كله الطابع الذي لا يخطئ لطبقتهم. بروتستانت بالطبع، أسياد أرض، وضاعت الأرض، واستنفذتها المشتريات الضرورية، وتبددت ثروة الأسرة في الضرائب وواجبات الوفاة والتضخم. غير أنهم كانوا يتحملون ذلك بشجاعة فائقة، وبأسلوب بالغ الأناقة! من النظر إليهم أدركت أن تربية مثل تربيتهم هي إعداد لا من أجل ملكية الأرض، بل من أجل ذاك اليوم البعيد، اليوم الذي وصلت إليه أسرة لولس حين ولّى بريق المجد ولم يبقَ إلا أناقة التصرف. ترهات بالطبع، ولكن في نظري أنا الذي نشأ في

(*) كيوبيد هو إله الحب عند الرومان وتمثال كيوبيد يمثله طفل جميل مجنح. وهو اللقب الذي أطلقه الراوي على الولد مايكل.

وسط كاثوليكي، من أصل ريفي، رأيت فيهم مخلوقات بلغت ذروة الكمال. اوه، لا تقذفيني بتهمة حب المظاهر. كان الأمر مختلفًا، إنه الافتتان أمام مشهد الأناقة الخالصة. بتجريدهم من الثروة والسلطان، صاروا أحراراً ليكونوا ما كانوا عليه بشكل نقي. الغريب في الأمر، هو أن أسلوب الحياة الذي اتخذته أناقتهم كان مألوفًا بالنسبة لي: جزم طويلة تغطي الركبة، أقنان الدجاج، السترات الفضفاضة، مألوف ولكنه متجلٍ. عذوبة الصوت والحركة التي أطمح إليها، كانت تأتي عفو الخاطر وعن غير قصد. إن المألوف عندهم عصي على التقليد.

كانت صبحيات الأحد في «فرن» لأداء الطقوس الاحتفالية. في الساعة العاشرة إلا ثلث تقرع أجراس القرية وسيارة كبيرة قديمة الطراز تتلمس طريقها للخروج من المرآب. إنهم في طريقهم إلى الكنيسة. وبعد ساعة يعودون، بدون إدوارد، تقود شارلوت السيارة. من مذياع المطبخ تنبعث أصوات خافتة لموسيقا شعبية. تعد شارلوت طعام الغداء الذي كنت أتناوله في طفولتي، قطعة الروستو الكبيرة، البازلاء المنقوعة، كتلة البوظة الذائبة فوق العمود البارد على عتبة نافذة الحمام. يتسلق إدوارد التلة، يداه في جيبيه، محدودب الكتفين. يتوقف قبالة الباب، ينظر إلى الزجاج المكسور للنافذة المستديرة التي تعلو الباب، ثم يدخل وينغلق الباب ويتحرك القطار فوق الجسر.

بدأت أوهامي حولهم تتغير بسرعة، إن لم تكن بدأت تنهار. في يوم من الأيام. نفذت فيما بعد البستان. إلى الأرض الممتدة خلف البيت، كل ما حولها كان الخطوط الباهتة لما كان، ذات يوم، حديقة مزدانة. ههنا كانت توجد بركة، والماء أخضر آسن، يتدلى فوقه حزن شجر يراقبني. كان النهار حاراً، لاسع الحرارة، كل شيء يتحرك. نحلة طنانة ضخمة تتخبط وراء أذني. عندما نظرت إلى الخلف، كانت العلامة الوحيدة للبيت مدخنة مسددة باتجاه السماء.

وجدت نفسي واقفًا على أطلال ملعب لكرة المضرب. أصاب عيني شعاع عكسه ضوء الشمس. في ركن، في الجانب البعيد للفناء يوجد بيت زجاجي ممتد ومنخفض الارتفاع. هبطت المنحدر بخطى مضطربة مثلما اضطرب آخرون في زمن آخر، وهم يضحكون ويمرحون، وراء طابة بيضاء تتدحرج نحو المستقبل بشكل يمتنع ردّه. أحدث باب البيت الزجاجي صريراً خفيفًا جداً عندما فتحته. كانت الحرارة صفعة ناعمة على الوجه. صف فوق صف من أوانٍ صلصالية وُضِعَت على منَصَب على طول المكان، مثل تدريب على المنظور يلتقي في النهاية القصوى على وجه شارلوت لولس، واقفة وظهرها نحوي. كانت تحتذي صندلاً، وترتدي تنورة خضراء واسعة، وبلوزة بيضاء، وعلى رأسها قبعتها الشمسية البالية. تكلمتُ، فالتفتت نحوي وقد أجفلها صوتي المفاجئ. حول عنقها يتدلى زوج من النظارات. أصابعها مكسوة بالصلصال. بظهر معصمها، لمست جبينها برفق. لاحظتُ التغضنات الخفيفة حول عينيها، والزغب الباهت فوق شفتها العليا.

قلت: «لم أكن أعرف أن البيت الزجاجي موجود هنا، كنت معجبًا، لا بدَّ وأنك بستانية متحمسة. كنت أثرثر. نظرت إليَّ بهدوء وقالت: «هكذا نكسب رزقنا. اعتذرتُ ولم أعرف لماذا اعتذرت، عندها ضحكت وشعرت ببلادتي. هناك أناس تشعر وأنت معهم أنك ملزم على تفسير سلوكك. قلت: ضللت طريقي في الحديقة، صدقي أو لا تصدقي، ورأيتك هنا، و ظلَّت تنظر إلي بانتباه، عالقة بكلماتي؛ تساءلت ما إذا كانت ثقيلة السمع. كان إمكان ذلك مؤثراً آخر. أم أن الأمر كان ببساطة أنها لم تكن تصغي حتمًا؟ كان وجهها خاليًا من كل تعبير باستثناء إحساس غامض بشيء مكتوم. جعلتني أتخيل شخصًا ما، يقف على أخمص قدميه وراء حاجز زجاجي. كل جزء منها العينان الشفتان، والقفاز الذي تتشبث به، يجهد ليصير الابتسامة الساطعة التي تنتظر وصول الحبيب. لقد كانت احتمالاً كلها. على المقعد حيث كانت تعمل، يوجد قاطع مفتوح، ونبتة مقطوفة ذات أزهار أرجوانية.

سرنا بين الطاولات، نخوض في حوض راكد من الهواء. وشرحت عملها، تسمي النباتات الأصلية والمهجنة بصوت حيادي. كان معظمها نباتات للتجارة. تفاح، بصلات أزهار، خضار، ولكن يوجد بعض الأشياء الغريبة ذات جذوع شاحبة، وأزهار عنيفة الألوان، وثمر يتدلى بين الأوراق الساكنة المصقولة كالزجاج. كان أبوها هو الذي بدأ العمل، وتابعته عندما قُتل أخوها. «مازلنا نتاجر باسم متاجر جرينجر. ميَّلت رأسي ببلاهة، الحرارة، والصمت القاتم، والتباين بين السكون ههنا، وصخب الريح الذي يضرب الزجاج من حولنا، أثارت في نفسي نوعًا من توجس مضطرب، وكأنما كنت أساق بحزم، ولكن بلباقة لا متناهية، إلى الخطر. ألوان تعج حولي، القرمزي، والأرجواني وفي كل مكان عشب أخضر، أملس، مطاطي ووحشي إلى حدّ ما. قالت: «في هولندا في القرن السابع عشر، كان صاحب المشتل يستطيع بيع فصيلة جديدة من زهر، التوليب، بعشرين ألف ليرة. «كان صوتًا مسطحًا مثل شيء ما يقرؤه شريط تسجيل. نظرت إليَّ ويداها مثنيتان، بانتظار تعليقي. ابتسمتُ وهززت رأسي، أحاول الظهور بمظهر المستغرب. وصلنا إلى الباب. ونسيم الصيف كان يبدو كعاصفة بعد سكون الداخل. وقميصي يلتصق بظهري. ارتعشت. مشينا لمسافة قصيرة في ممر تحت قوس من زهرة الدفلى (الرودودندرون). ضوء خفيف ينسل من خلال الأغصان المتشابكة، وكانت تنبعث رائحة طحلبية عفنة من فوقس (طحلب) سامّ. وفجأة، وبلا قصد كنا خلف الدار. كنت مرتبكًا؛ أخذتني الحديقة خلسة في دائرة. دمدمت شارلوت بشيء ما وابتعدت. في الدرب الخاص تحت شجرات الجميز، توقفت ونظرت إلى الوراء. كان البيت هادئًا، إلا عندما حرَّك النسيم بقوة ستارة نافذة مفتوحة في الطابق العلوي. ماذا كنتُ أنتظر؟ كشفًا ما؟ وجهًا يراقبني من خلال مرآة تعكس السماء، صوتًا يناديني؟ لم يكن هناك أي شيء ـ ولكن حدث شيء ما لا فرق.

مايكل، كان اسم الولد. لم أتمكن من رؤية الصلة التي تربطه بأسرة لولس. وفي الحقيقة كان مثل إدوارد، خُلِق للتسلل. كنت أصادفه فجأة يحوم حول المكان في الممرات الضيقة، يشق السياج ويدمدم مع نفسه، أو أراه واقفًا وحسب ويداه خلف ظهره وكأنه يخفي شيئًا ما ينتظرني حتى أمرَّ بالقرب منه. بعد ظهيرة نهار مشمس بينما كنت جالسًا مع كتاب في ظل شجرة في البستان، نظرت إلى الأعلى لأجده متعربشًا بين الأغصان، ينظر إليَّ متفحصًا. في وقت آخر ساعة الأصيل، أجده على الطريق يحدق بإمعان في شيء ما على حافة المنحدر حيث كان يقف. كنت وراءه ولكنه لم يسمعني؛ توقفت متسائلاً عما كان ذاك الشيء الجديد بكل هذا الانتباه. وعبر سكون المساء سمعت صوتًا خفيفًا لموسيقا يصدر عن مهرجان القرية.

ذات مساء، في طريق عودته من القرية، وقف إدوارد أمام المنزل الذي أقطن فيه. كان، في مظهره البدائي، يشبه رجلاً جُرَّ من سريره في ساعة متأخرة، ودُفع تحت صنبور ماء بارد؛ كان جفناه محمرين، ويكسو رأسه شعر أملس. كان يدندن ويتلكأ جاراً قدميه فوق الحصى إلى جانب الطريق، وفجأة دعاني: تعال إلى البيت وتناول معنا بعض الطعام. أظن أنها المرة الأولى التي دخلت فيها إلى ذاك البيت. كان معتمًا، عتيقًا يبعث على الكآبة. كان يوجد هناك عصا لعبة الهورلي موضوعة في قاعدة المظلة. وفوق طاولة القاعة، وُضِعت مزهرية فيها باقة من النرجس البري الذابل. وفي فجوة في جدار القاعة، عُلِّقت ساعة حائط تقطع السكون وتبث نغمًا واحدًا متهاديًا. توقف إدوارد عابسًا لينظر إلى ساعة جيب. وفي الضوء الخافت المغبر، كان لوجهه البريق الرمادي لشخص ليِّن العريكة. حدَّق بصوت خافت.

كان العشاء في المطبخ الواسع المطروش بالأبيض خلف البيت. توقعت قاعة طعام كئيبة بمناديل من الكتان الناعم، مع الحرف الأول من الاسم وقد بهت لونه، وبعض الفضة القديمة الموضوعة بإهمال. لم يكن عشاء بل بالأحرى وجبة شاي،

مع شراب مخفف بالماء، وخس ذابل، وزجاجة من كريما السلطة بلون الشريد. مفرش الطاولة كان من البلاستيك. شارلوت وأوتيلي في منتصف وجبتهم. نظرت شارلوت بصمت للحظة إليَّ باتجاه وسْطي، وعلى الفور، أدركت أنه كان عليَّ عدم الحضور. أعدَّت أوتيلي مكانًا لي. النافذة المغلقة تطل على حديقة للخضار وبعدها يمتد حقل، وبعده غابة بعيدة بخضرتها المائلة إلى الزرقة. وكانت أشعة الشمس تتسرب من خلال أوراق شجرة كستناء في الفناء متغيرة باستمرار تترجرج في زاوية عيني. بدأ إدوارد بسرد حكاية كان قد سمعها في القرية، ولكنه اضطرب وجلس يحدق في صحنه بنظرة غائبة، وهو يتنفس. سعل أحدهم، زمَّت اوتيلي شفتيها وبدأت تصفِّر بصمت. التفتَ شارلوت نحوي بحركة مباغتة ومتشنجة وقال بصوت عال:

هل تعتقد أننا نتخلى عن حيادنا؟

نتخلى؟ الموضوع مطروح في الصحف. حسنًا، لا أدري، أنا.

قال، إدوارد، مقحمًا نفسه، ودافعًا رأسه الضخم كرأس الثور: «نعم أخبرنا الآن ـ أخبرنا بماذا تعتقد، أنني مهتم جدًا، جميعنا معنيون، ألسنا جميعنا معنيين؟ لا بدَّ لرجل مثلك أن يعرف كل شيء حول تلك القضايا».

«أعتقد أننا سنكون جداً»...

«هنا بالطبع لا يوجد لدينا معلومات موثوقة. حشد من الناس يجري في مستنقع» كشَّر وهو يشخر بصوت خافت، ويضرب بـ «حافرته»(*) على سطح الطاولة:

قلتُ، في اعتقادي سيكون الاستسلام حماقة بالغة. «وماذا عن محطة الطاقة هذه التي يريدون إنشاءها في «كارنسو»؟ قنبلة دموية تفجرنا جميعًا، مهرج ما، سكير يعاني في الصباح آلام سكر الأمس.

(*) م. حافرته كلمة عامية ـ وهي عادة لا تقال إلا عن الحيوان.

لن نحتـاج إلى الروس. مـاذا؟ كـان ينظر إلى شـارلوت. لم تتكلم. قـال «حسنًا، مـا الخطأ في أن يكون المرء عاديًا، مثل أي بلد آخر، لدينا جيش ونداقع عن أنفسنا؟ أخبرني ما الخطأ في ذلك؟». ونظر إلينا متجهمًا، طفل ضخم حقود.

سـألت أوتيلي «ومـاذا عن سويسـرا؟ كـانت تقهـقـه» سـويسـرا؟ آه الحـلابون وأصـحـاب معـامل الشـوكـولا، ومـاذا سـاعات الكوكـو «وثانية وجَّه نظره ذا الجفون المحمرة» وقال متجهمًا: «يوجد الكثير الكثير من هؤلاء الحياديين الملاعين».

تنـهـدت شـارلـوت، وأخـيـرًا رفـعت نظرها عن طبـقـهـا، وقـالت بـرفق: «إدوارد». لم يحـوِّل نظره عني، ولكن الضـوء خـبـا على وجـهـه، وللحظة كـدت أشعر بالأسف من أجله. ودمدم «لا يعني ذلك الإدانة على أية حال». وبهدوء رفع ملعـقـتــه. لعنت نفـسي لوجـودي هناك، ومع ذلـك كنت تواقًا. بـاب أرضي رُفِع للحظة عن أشكال داكنة مـجلودة، والآن أغْلِق من جـديد. راقبت إدوارد خلسة. الغبي. دعاني إلى هنا ليتخذ مني ذريعة لشرابه أو من أجل ردّ الاتهام. الآن أدركت الأمر بكامله، بالطبع: لقـد كـان عالة، وتابعت شـارلوت تصـريف الأمـور. كان الخطأ يلوح في كل شيء؛ حتى في الطفل. مع تناغم الكل، المظهر الكئيب والعين الزائفة، التسلل، الصمت، التوتر، هذا الإحساس الذي أدركته منذ بداية إقامتي بين هؤلاء الناس الذين يدورون بعيدًا عني، يسعون إلى هدف لم أتمكن من رؤيته. فهمت أيضًا الولد في استقلاله الحرون. نظرتُ إلى رأس شارلوت الرقيق، عنقها النحيل، ويدها الموضوعة إلى جانب صحنها. وكان ظل أوراق الشجر يتحرك على الطاولة مثل وميض الدموع. كيف أستطيع أن أجعلها تعرف أنني فهمت كل شيء. دخل الولد متوشحًا بمنشفة حمام بيضاء اللون. كـان شعره مبللاً ملتصقًا بشكل تعيس على رأسه، انسحب عندما رآني وخطا إلى الأمام متجهمًا.

أشـارت شارلوت بيـدها نحوه فجاء إليها. تغاضت عنه أوتيلي. نظر إدوارد نظرة ملتـوية وكـأن ابتسامـة تتجـه إلى مركـز وجـهـه حطت بعيدًا عن الهدف، تمتم مايكل بتحية المساء وذهب مغلقًا الباب وهو يمسك بالمقبض بكلتي يديه. التفتُ إلى

شارلوت بلهفة، وسألتها بانفعال واضح «ابنك»... «ابنك هو جداً، ثم ارتبكتُ، وكأنني أسمع قرعًا معدنيًا لجرس منبه. ساد صمت. احمرت شارلوت خجلاً. وفجأة شعرت بالكآبة؛ لقد كنت فضوليًا، تلك هي الكلمة. ماذا أعرف حتى أعطي لنفسي الحق بالحكم عليهم؟ كان ينبغي ألا أكون أبداً هنا. أكلتُ ورقة خس وخلفي الشجرة الكبيرة الراسخة الجذور في الأرض، وأمامي الأحجية الملحة التي يطرحها هؤلاء الناس أمامي. وددت لو بقيت بعيداً عن دربهم ولزمت البيت الذي أقطنه بل تمنيت العودة إلى دبلن ولكنني أدركت أن لا سبيل إلى ذلك. بدا لي أنني أنتظر درسًا واسعًا يمتد أمامي.

رافقتني أوتيلي إلى عتبة الباب. لم تقل شيئًا ولكنها ابتسمت واعتذرت بمرح مفاجئ. وعندئذ، لا أدري لماذا، جاءتني الفكرة، لم يكن مايكل ابنهما: إنه ابنها بالتأكيد.

شكراً لك على منشورات بوبوف الأخيرة، وصلتني اليوم. ماكرة جداً أنت يا كليونا ـ ولكن لا يمكن لمكتبة بأكملها من منشورات بوبوف أن تدفعني إلى النشر. صادفته ذات مرة، رجل دميم، قصير القامة، ذو عينين متأهبتين للاقتناص، وبزّة ملوثة بالشحم. يفكرني بمحنِّط. صفة تليق به لو فكرنا فيها. أحب استنكاره: قبل ظاهرة إسحق نيوتن، لا يسع المؤرخ إلا أن يهز رأسه، وينسحب بما يسعه من الأناقة، مثل فرويد عندما جاء ليتأمل ليوناردو. وبعد ذلك في الخارج تأتي إبرة الحقن والفورمالين. ذلك ما كنت أقوم به أيضًا وأنا أحنط بدن نيوتن الضخم، إلا أنني كنت أمتلك ما يكفي من الأناقة لأنسحب قبل تثبيت ظل تكشيرة الموت بالشكل المناسب.

لقد كان نيوتن أكبر عبقري أنتجه العلم. حسنًا، ومن يريد إنكار ذلك؟ كان لا يزال في عشرينيات عمره عندما حطّم قانون آلية عمل العالم. هو وحده الذي اخترع العلم: قبله، كان كل شيء سحراً وأحلامًا عذبة وتخبطًا لامعًا. لعلك تقولين ما قاله نيوتن نفسه، لقد رأى بعيداً لأنه وجد مناكب عمالقة ليقف عليها:

ربما تقولين أيضاً أنه ما كان ليأتي إلى الوجود لولا أمه وأبوه، وهذا صحيح، ولكن ماذا يعني؟ على كل حال، عندما جدَّد قوانين الجاذبية أزاح بعيداً عالم العمالقة هذا والجن الآخرين. آه نعم، تستطيعين أن تَرَيْ، أليس كذلك، الخط العريض لما يمكن أن يكون عليه كتابي. تمجيد للعمل، وتمجيد للعالم بوصفه بطلاً، وإقرار مرح بالافتضاح المرعب لباندورا(*)، وهزال العصر الوسيط المرفوس إلى الخارج واستعادة عصر العقل. ولكن هل تصدقين أن كل هذا، نيوتن - بوبوف - كأكبر عالِم - عرفه العالم، إن كل هذا يجعلني أشعر بالغثيان؟ ليس إلحاحاً على الرغم من أن لاشيء يمكن مقارنته بحقائق العلم السامقة في نظر العقل.

أعتقد أن نيوتن نفسه رأى شيئاً من هذا القبيل في ذاك الصيف الغريب من عام ١٦٩٣. تعرفين الحكاية، حكاية كلبه الصغير «دياَمون» الذي قلب الشمعة في سكنه في «كامبردج» في صباح مبكر، واشتعلت النار التي التهمت رزمة من أوراقه وكيف أدى فقدانها إلى اضطراب عقله. تفاهات بلا ريب، الكلب نفسه من نسج الخيال ومع ذلك ألفيت نفسي أتصوره، رجلاً في الخمسين من عمره، في ذروة شهرته، يقف مذعوراً وسط الدخان والسخام المتطاير والكلب المشلوط بالنار بين ذراعيه. والمضحك هو أن ما قاده إلى الجنون لم يكن فقدان الأوراق الثمينة بل الواقعة البسيطة: **لاشيء**. ربما ضاع عمل حياته كله، كتاب «المبادئ» بالذات، وكتاب «البصريات»، ذاك القدر من العمل والدأب، ويبقى ذلك كله بلا معنى. نفرت الدموع من عينيه والكلب يلعقها من ذقنه. يأتي زميل مسرعاً وقميصه خارج بنطاله. جرَّ الرجل العجوز إلى الدهليز شاحب اللون من الصدمة، يمشي وكأنه يمشي على ساق ملقوطة. أخذ يضرب اللهب. ويسأل عما ضاع وانفرجت شفتا نيوتن، وسقطت كلمة ثقيلة كالحجر: **لاشيء**. في ضوء الصباح

(*) م باندورا: المرأة التي خلقها هيفايستوس بأمر من زوس، وفقاً للأسطورة الإغريقية، آثينا إلهة الحكمة وهبتها الرقة والمواهب كلها وأهداها زوس علبة وأرسلها إلى ابيميتوس، الرجل الأول الذي تزوجها. وفتح هذا الأخير العلبة فأفلتت منها الشرور والخيرات. ولم يبق فيها إلا الأمل.

الباكر المتسرب من النافذة، لاحظ تفاصيل: منقذه وهو حافي القدمين، الأظفار الصفراء لأصابع القدمين، السواد المخملي للورق المحترق. يبتسم وينظر زملاؤه، أحدهم إلى الآخر.

ما من حاجة للهب شمعة، لقد كان الشيء رماداً من قبل. فلأي شيء آخر تحوَّل إلى فكِّ رموز سفر «التكوين»، والاهتمام «بالخيمياء»(*)؟ ولماذا ألحَّ مرة تلو المرة بأن العلم كلَّفه ثمنًا باهظًا من حياته، ولماذا كان يتمنى لو أنه لم يشتغل بالفيزياء؟ لم يكن ذلك تواضعًا، لا أحد يمكنه اتهامه بذلك. النار، أو أي شيء كان هذا الانفجار، بيَّن له أمراً رهيبًا ومحببًا، كما اللهب ذاته. لاشيء ودوَّت الكلمة، وأطال التفكير فيها كما في شعار سحري تمتنع رؤية جوانبه المتوارية ومع ذلك فهو موجود بقوة هناك. لأن اللاشيء يعني، بشكل آلي، كل شيء. لم يعرف ماذا يفعل وفيمَ يفكر، ولم يعد يعرف كيف يحيا.

ما من وحي ساطع لتفسير أزمة إيماني؛ كما أنني لا أجد ما يمكن تسميته أزمة بالمعنى الدقيق. بكل بساطة، توقفت عن الكتابة. مضى شهر حزيران دون أن أضع قلمًا على ورقة. ولكنني لم أعد مكترثًا ـ بالضبط أشعر بما هو عكس ذلك. كان ذلك يشبه الإبلال من مرض عضال. إنك لا تلحظين الهدوء التدريجي للدم، صفاء الرأس، والقوة الجديدة للأوصال، ولا يعنيك إلا الانتظار بهدوء، بشقة، لتنطلق الحياة من جديد. لن تصدقيني، أعرف ذلك: كيف أمكنني التخلي عن سبعة أعوام من العمل بكل بساطة؟ لقد كان نيوتن حياتي، لا هؤلاء البشر البلداء القابعون في بيوتهم المتداعية في قلب الريف. ولكنني لم أرَ في ذلك خياراً مسيطراً: فالأشياء تتخذ شكلاً بسيطًا ونهائيًا بمجرد النظر إلى الخلف.

(*) م. الخيمياء: الكيمياء القديمة.

على الطاولة تنتشر أوراقي دون أن تمس، بالقرب من النافذة، وتستحيل إلى اللون الأصفر في ضوء الشمس. عندما وقعت عيني عليها أحسست بنفاذ الصبر وبضغينة غامضة، كان انتباهي الحقيقي في مكان آخر معلقًا مستعدًا لأن يهب نفسه مع صرخة فرح إلى ما سيحدث.

وما حَدَث لم يكن في الحسبان.

تصوري يوم من أيام حزيران، العصافير والأنسام والسحب المتطايرة، ورائحة المطر القريب. وقت الغداء. في المطبخ يقبع الموقد في ركوده الحار بعد أن أدى مهماته، كان الهواء ثقيلاً مع دخان دهن محروق. قَرْع. سرت ببطء لفتح الباب وأنا ألعن في سري. أوتيلي، تقف عند الباب مع الطفل بين ذراعيها فاقد الوعي.

لقد سقط من الشجرة وجرح ينزف على جبينه. أخذته منها. كان أثقل مما توقعت، ورخواً مثل الموت. بدا وكأنه قد ينسكب من بين أصابعي في حيِّز صغير من الأرضية. أحسست بالخوف والغثيان. وضعته على صوفا مغطاة بغطاء مصنوع من وبر الحصان، سعل وفتح عينيه. في البدء لم يظهر منهما إلا البياض، ثم انغلق الجفن وكأن شيئًا مروعًا يهبط في مصعد، كان وجهه بلون الرخام الشفاف، بظلال بنفسجية تحت العينين. وعلى جبينه كدمة واسعة تزداد اتساعًا؛ وتجمد الدم وكأنه نوع من «الجيلي» كان يصارع، وأوتيلي، واقفة على كعبيها تتنهد: أوف.

أخذته ثانية بين ذراعي وحملته إلى المنزل. لا بدّ أننا كنا نشبه صورة توضيحية في قصة فكتورية، سائرين إلى الأمام، عبر العشب المائل. هل ذراعا أوتيلي مشبوكتان بصدرها؟ كان مايكل يدير وجهه عني، بتصميم. على درجات السلم كان يتلوى ليرغمني على تركه. فتحت شارلوت الباب ـ وللحظة بدت تتراجع إلى الوراء مسرعة وأغلقته ثانية قالت أوتيلي: «أوه، إنه بخير» ونظرت إلى الصبي. تركتهم، كان غذائي قد تجمد في دهنه.

بعد ساعة جاءت أوتيلي إلى مسكني ثانية. أجل، أجل، إنه بخير، الطفل المزعج لم يُصَبْ بأي كسر. اعتذرتْ عن إحضاره إليّ: كان مسكني أقرب إليها. أجبتها «أنا سعيد» دون أن أعرف ما عنيت بالضبط. هزت كتفيها لا مبالية. كانت قد وضعت أحمر الشفاه. قالت: «لقد خفت». كنا نقف مرتبكيْن، ننظر إلى الأشياء مثل أناس على رصيف القطار يحاولون التفكير في أسلوب قول كلمة الوداع قبل الرحيل.

انحسر ضوء الشمس وبدأ المطر بالهطول. فجأة انزلقت فقاعة في صدري فوضعت ذراعي على كتفيها وقبلتها. على رسغي بقعة من الدم الذي جفّ. كان في مذاق أحمر، شفاهها شيء من الطفولة، بلاستيسين، أو طعم السكاكر الرخيصة. عندما تراجعتُ عنها وقفت ببساطة متجهمة تحرك شفتيها وكأنها تحاول التعرف على مذاق مألوف بشكل غريب.

قلت: «أعتقد أنه لا يحبني».

«ماذا؟ كلاّ، كان مرتبكًا».

«هل يرتبك الأطفال؟».

أجابت بعذوبة: «أجل» وأخيراً نظرت إليّ.

«أوه، أجل، إنهم يرتبكون».

* * *

غريب هذا الجسد الموهوب بدون شروط، جسد لا ترغب به حقًا. تشعر بالأمور الأكثر غرابة، بالحنان طبعًا، ولكن أيضًا بنفاذ الصبر، بالفضول، بشيء من الرضا وشيء آخر، الاسم الوحيد الذي أجده له هو الحزن. عندما خلعت ملابسها لم تبدُ عارية وحسب بل أنها تؤدي عملية بالغة التعقيد وكأنها تخرج من داخلها، لا لتكشف عن صدرها وبطنها الأشقر، بل عن أعمق جوارحها، الرئتين الهشتين، والعش النهدي للأحشاء، ووميض عاج العظام، وقلبها الذي ينبض بعنف. أخذتها بين ذراعي وأحسست بالصدمة الرقيقة لشعوري المباغت بأنني مسكونٌ بكل ما تعني هذه الكلمة.

لم أكن مستعداً للطفها. في البداية كان لطفها يبدو صداً. كنا ساكنين إلى حدٍّ أنني كنت أستطيع سماع صوت ارتطام المطر على النافذة. في مدينة الجسد أسافر بلا خرائط، سائح قلق، وكانت أوتيلي حقًا مدينة البندقية. كنت أتعثر تائهًا في الظل الأزرق لأرصفتها.

كان يخيم سكون حالم، تمايل، رذاذ ترشه حركة المجذاف. وكانت سربًا من العصافير تتبعثر بصيحات رقيقة بين ذراعي.

كنا مستلقيْين ومقشعريْن مثل سمكة تُدفع إلى الشاطئ؛ إلى أن نقرت بأصبعها ثلاث نقرات على مؤخرة عنقي وجلَسَت. ملت على جانبي وحدّقت بنوع من وجوم عميق في طيتي الجسد فوق عظم الحوض. ارتدت بنطالها وسترتها ذات النسيج الرخو ومشت بخطى وئيدة نحو المطبخ لتُعدَّ الشاي. كان أثرنا على غطاء السرير على شكل سلحفاة. وفي قلبي، أخذ الحزن موضعه. حين عادت كنت قد انتهيت من ارتداء ثيابي. جلسنا على السرير وشربنا الشاي الثقيل في الأقداح المتصدعة. وأظلم النهار واستمر المطر.

قالت: «أظن أنك تعتقد أنني مومس بجدارة».

كان الأمر طارئًا منذ البداية، وبقي طارئًا. أستطيع بلا ريب رسم خارطة لأسفارنا المنفصلة إلى هذا السرير. يمكن أن يوجد شجرة صغيرة مؤسلبة وكيوبيد رشيق وحرف S بحبر قرمزي يشير إلى بقعة الدم، وخطوط زرقاء مائلة تشير إلى المطر. ولكن قد يكون ذلك مضللاً وقد يبدو علم خرائط الحب. ما عساي أقول؟ لا يمكنني إنكار روعتها الشقراء البراقة التي تلمسني. أذكر يديها على عنقي، والعمق البنفسجي لعينيها، وقدمها الشاحبة الناعمة بشكل لا يُصدَّق وصيحاتها، والفزع المفاجئ لمجيئها عندما كانت ترغب باحتضاني، أسنان رطبة مكشوفة وارتعاش رموش عينيها مثل من يقع بلا مقاومة في حلم. ولكن الحب؟

حفرت ملاذًا في حياتي في المسكن بتصميم لا تبوح به. أحضرتْ أوراقًا مطبوعة قصتّها من مجلات براقة من الورق الصقيل وألصقتها فوق السرير، نجوم سينما، صوراً لنيوتن... وبدأت الأزهار تنتشر حولي في زجاجات العسل، في علب معدنية صغيرة. وظهر إبريق شاي جديد، وقدحان من العظم الصيني الجميل أصابها التصدع نفسه. وفي يوم من الأيام جاءت تحمل مذياعًا قديمًا أنقذته من المرآب. كانت تعبث به لساعات، متنقلة بين المحطات، فمها مفتوح قليلاً وعيناها مثبتتان على لاشيء بينما تصدح أنغام الفرسان الهونغاريين أو أنغام صيادي السمك في أذنيها، وينحسر النهار والضوء الصغير الأخضر يتقدم على الدوام على لوحة الصوت في الظلام المتزايد.

أعتقد أنها كانت تنشد الصحبة أكثر مما كانت تبحث عن الجنس، ولعلها، أكثر من ذلك، كانت تنشد الحب. كانت تتكلم. أحيانًا أخالها أتت إلى السرير معي لتتمكن من الكلام. كانت تنشر فضائح الجوار: هل أعرف الرجل في مشرب «بيرس»، إنه يضاجع ابنته: كانت تروي أحلامها بتفصيل دقيق؛ لم أكن أظهر أبداً

في أحلامها. ومع أنها أخبرتني الكثير عن العائلة، فأنا لم أعلم إلا القليل. كمٌّ الأسماء والتواريخ الغائمة خدّرني. كانت كلها مثل قصص في كتاب تاريخ، حية وتنسى على الفور. كان والداها اللذان اختطفهما الموت، موضوعها الأثير. في خيالها كانا مثل «سكوت وزيلدا» جميلين حكم عليهما القدر، الشعر مردود إلى الخلف ومناديل من الحرير الأبيض تتطاير في الهواء بينما كانا يبحران ضاحكيْن هابطين منحدر الكارثة. كل ما كنت أستطيع القيام به، بدوري، أن أحدثها عن نيوتن عارضاً أمامها علمي السري. بل حاولت أن أقرأ لها بصوت مرتفع مقاطع من مقالي عن الشيخ غاليله. أحسست بالنعاس، بالطبع لم نتكلم كثيراً. كانت علاقتنا تستمر من خلال وساطة هذه الأشياء الحيادية. قصة، ذكرى، حلم.

كنت أتساءل ما إذا كان البيت الكبير يعرف شيئاً عما يجري بيني وبين أوتيلي. كانت الفكرة مثيرة وغامضة. ساعة الشاي في أيام الآحاد صارت مؤسسة، ومع ذلك لم أشعر بالارتياح قط، وأعترف أنني كنت أستمتع «بالماصونية» الجنسية، بإشارتها السرية، بالنظرات والابتسامات المتوارية، بأسلوب أوتيلي في النظر إلي، نظرة تلتقي وتمتزج بنظرتي بعمق عبر الطاولة بحيث كان يبدو أنه لا بدّ أن هناك صور لمحبين صغيرين جداً يثبان جزليْن بين أدوات الشاي.

في البداية كانت ممارستنا للحب بريئة بشكل غريب. كان في سخائها نوع من تذلل يائس أمام مذبح الهوى. لم تكن تحتفظ بأية خصوصية ولا تبتغيها. ما من جزء من جسدها تود إخفاءه عني. مثل هذا التصميم في العطاء، كان، في البداية، يرضي غروري ثم تحول إلى عطاء خانق. كنت بالطبع أعتبرها مضمونة لي إلا أنها كانت تنساني عندما تحظى بما ترغب أو تصاب بالملل. عندئذ تشغّل المذياع، تجلس بالقرب من الموقد على الأرض تنقر أنفها بتركيز حالم، تود الابتعاد عني وفجأة تصير غريبة يمتنع فهمها مثل كلمة أحياناً أو حتى اسمنا نفسه ينفصل لفترة قصيرة عن معناه ويصير ثقباً في شبكة العالم. كما كانت تمر بلحظات توكيد للذات. قد

يجذب شيء ما انتباهها فتدفعني بعيداً عنها، غائبة الذهن كما لو كنت قطعة أثاث، وتنظر إلى بعيد بنظرة مقتضبة، معتوهة إلى أعلى التلة، في اتجاه موسيقا الكرنفال التي لا تسمع شيئًا سواها. وقد تنخسني بدون إنذار في صدري بقوة وهي تضحك. سألتني ذات يوم إن كنت قد تعاطيت المخدرات. قالت: «إنني أتطلع إلى الموت»؛ يعطونك هذا النوع من كوكتيل المورفين.

ضحكتُ. «أين سمعت هذا؟».

«هو ما يعطونه للناس الذين يموتون من السرطان» وهزت كتفيها غير مبالية. «الكل يعرف ذلك».

أظن أنني كنت أثير حيرتها أيضًا. قد أفتح عيني وأراها تحدق في المرآة الضبابية لقبلاتنا كما لو أنها تراقب جريمة أخاذة تمّ ارتكابها. يداها تستكشفاني بعناية مختلسة لرجل ضرير. مرة، تنزلق شفتاي على بطنها أرفع نظري وألتقط نظرتها إلى الأسفل والدموع تملأ عينيها. كان التمحيص العاشق أكثر مما أحتمل. وأحس بشيء ما في داخلي يغطي نفسه بعباءة قذرة ويمضي بعيداً متستراً. كما كانت تحاول أن تعرفني بشكل لم أعتد عليه.

لأول مرة في حياتي بدأت أشعر بسنين عمري. يبدو هذا حماقة، أعرف. ولكن الأشياء كانت تحدث لي، وللعالم قبل مولدها. إن سنوات حياتي قبل وجودها فيها اخترقتني مثل حَدَث خارق، نوع من حيلة بارعة انطلت عليَّ. أنا من كان الماضي موضوع هواه، اكتشفت عندها ماذا يعني الماضي. ليس الماضي وحسب. قبل قضيتنا ـ الكلمة تجعلني أجفل. كنت أتأمل نهايتها قبل أن تبدأ. ستضحكين، ولكنني اعتدت تصوير فراش موتي: ليلة حارة ساكنة وضوء المصباح يترجرج وترتطم فراشة بزجاجه، وأنا الفتى الذابل أتذكر بوضوح سحري بينما يتداعى النَفَس في تلك اللحظة في غرفة النوم تلك، في حالة خَدَر، والنسيم العابر

من النافذة، الجميز، وقلبها الذي يخفق تحت قلبي، وذاك العصفور المنادي من بعيد من ضياع أرض ضائعة بملء المعنى.

قالت ذات مرة بصوتها العميق، في لحظة رشد مفاجئ: «يا يسوع، إن لم يكن هذا حبًا فما عساه يكون إذن!» ـ سمعت ضحكتها المتقطعة ـ حتى أتى شخص آخر، شريك سري، بلباقة، بانتباه، ولكن بشكل أكيد لينضم بطريقة أو بأخرى دائمًا إلى حزننا الراسخ.

كان عيد ميلاد مايكل في آخر شهر حزيران، أقيم حفل استقبال للمناسبة. ضيوفه، دزينة من رفاق الصف، في مدرسة القرية. كان جميعهم مخلوقات صغيرة ذات مظهر جائع، أقزام من بطن واحد، كانت البنات مغزليات الساقين، مجدولات الشعر إلى الخلف، والصبية متوثبين بقصّة شعر قاسية، أعناقهم شاحبة ضعيفة مثل أعناق الأرانب. لماذا انتقاهم، هل كانوا رفاقه الوحيدين في المدرسة؟ كان يبدو بينهم عملاقًا أشقر. بينما كانت شارلوت تُعد الطاولة في قاعة الاستقبال لتناول الشاي، وأوتيلي تقود ألعاب الاحتفال، تحرك يديها وهي تصيح مثل قائد فرقة موسيقية خُصِّصت للمجانين. بدا مايكل حرونًا معوَّق الحركة.

ذهبت إلى البيت أحمل هدية له. قدَّموا لي قدحًا من الجعة الفاترة وتركوني في المطبخ. ظهر إدوارد بعصاه المرفوعة. «أضعنا اثنين من هؤلاء المشردين، هل رأيتهم؟ القصة ذاتها، يبتعدون ويختبئون ويبدؤون بالحلم وينسون الرجوع «يتلكأ ناظرًا إلى كأسي. هل أنت أيضًا مختبئ؟ فكرة جيدة. خذ شرابًا غير هذه البيرة» أخذ كأس البيرة إلى المجلى وأحضر قدحيْن وزجاجة ويسكي. «هاك هي. صحتك. آه».

كنا نقف مثل قزمين خرافيين وَجِلَيْن، نصغي إلى صخب الحفلة المنبعث من القاعة. انحنى على عصاه، وهو ينظر إلى شرابه بإعجاب. قال: «كيف تعيش في نُزلك، هل هو مناسب؟ السقف بحاجة إلى تصليح ـ بيت بارد في الشتاء، أعرف

ذلك «نحن نقوم بـدور المـرافقين اليوم». واسترق نظرة موروبة باتجاهي. «ولكنك لا تريد البقاء هنا في الشتاء، أليس كذلك؟» هززت كتفي غير مكترث؛ تكهن ثانية أيها الأحمق. قال: «أو لعتَ بنا، أليس كذلك؟» قال ذلك بشيء من الحياء.

الآن حان دوري لأسترق النظرة الموروبة.

قلت: «حلمك» وبهدوء. شيء من هذا.

عبرت سحابة واندفع نحونا ظل شجرة الكستناء عبر الأرضية المكسوة بالآخرة. منذ البداية أدركت أنه سكير كسول، آثم بلا اندفاع، لم يحظ من الرجولة بما يكفي ليكون وحشًا: لعله قناع يخفي خلفه منافقًا بارعًا، يبتسم ويدبر مكيدة. مُحال. ولكنني لم أحب تلك النظرة في عينيه ذاك اليوم. هل باحت أوتيلي بأسرار؟

قال: «كنت أعيش هنا ذات يوم، هل تعرف؟».

«ماذا ـ في النزل؟».

«منذ سنوات خلَت. كنت أقوم بإدارة المشتل عندما كان والد لوت (شارلوت). لايزال على قيد الحياة».

صياد ثروة إذن، يا إلهي! ربما ضحكت.

صبَّ كأسًا أخرى وسرنا إلى الخارج باتجاه الساحة المفروشة بالحصى. فوق الغابة البعيدة كان الصقر يصطاد. لوت (شارلوت). قال «أما زلت تشتغل بكتابك؟» «اعتدت كتابة بعض الشعر أنا نفسي». أوه النوع البشري [الوافر] «عزفت عن ذلك بالطبع، مثل أي شيء آخر. «تأمل برهة متجهمًا وزرقة الدردنيل شعّت في عينيه المحكومتين بقدره. راقبتُ الصقر في دورانه. ماذا أعرف؟ ربَّما خلف سلَّم، في مكان ما توجد حزمة من القصائد قد تفتن العالم لو نُشِرَتْ. فرضية عبثت بها. ذهب إلى المطبخ وأحضر زجاجة الويسكي». هاكَ، دورك في الضيافة. لا يُفتَرض أن أشرب من هذا إطلاقًا. «سكبت مقدارين سخيين. إن

الإشارة الأولى لبلوغ حالة الثمالة تبدأ بسماع تنفسك. كان يراقبني [الوافر] تعكرت زرقة عينيه. له أسلوب في الظهور، لعله يرجع إلى رأسه الكبير ـ الثقيل جداً. قال: ألست متزوجًا؟ «لا بأس، فالنساء بعضهن. . . . . ارتعش ودفع بكأسه في يدي وذهب باتجاه شجرة الكستناء وبدأ بالتبول على جذعها، وهو يمسك بهذا الشيء الأبيض الأخرق، بين السبابة والباهم ليد مقوسة بشكل أنيق وكأنها تمسك بقوس كمان. أرجعه إلى مكانه وتناول عصاه. وعاد يقول «النساء» ما رأيك بهن؟».

لم أحب أسلوب الحديث هذا، صبيَّان عجوزان معًا، السكِّير والمنافق، والتبوّل في مهب الريح. بعد ذلك ستتبادل القصص القذرة. استعاد شرابه، توقف وراقبني بإمعان وهو يضرب على قفاه. ثمة عنف في داخله حال دون خروجه ولكنه كان أكثر نشاطًا يُحكِم قبضته في الباطن. قلت: «تبقيان هنا، أعتقد» وأطلقت ضحكة تشبه صرير باب ثقيل الحركة عند انفتاحه. لم يكن يصغي إليّ.

قال: «ليس الخطأ خطأهما» وهو يتكلم مع نفسه. كان لابدّ لهما من العيش، والحصول على ما يمكنهما الحصول عليه، كان عليهما أن تكافحا وأن تشقا طريقهما. ليس خطؤهما إذاً. . . . «وثبَّت نظره عليّ، شيطانة الليل(*)! أتعرف هذه الكلمة؟ إنها كلمة عظيمة، أحبها». وضع ذراعه حول كتفي الأمر الذي أراعني وسار بي عبر الدرب المفروش بالحصى إلى الحقل خلف شجرة الكستناء. والعصا التي ما زال يحملها تتدلى إلى جانبي. خصلة شعر ثعلبية على عظمة وجنته وعلى جانب عنقه وراء الأذن. كان نَفَسه رديئًا. قال: «هل رأيت في الصحيفة تلك المرأة العجوز التي ذهبت إلى مركز الشرطة لتشكو جارها الذي يحفر ثقوبًا في الجدار ويملؤها بالغاز ليقتلها؟» ضيَّفوها كأسًا من الشاي وأعادوها إلى بيتها، وبعد أسبوع وُجِدتْ ميّتة، وثقوب في الجدار الدموي، والجار فاقد الصواب، والأنابيب

(*) شيطانة الليل تجامع الرجال أثناء نومهم.

الكاوتشوكية ملتصقة بالجدار، معتوه كلياً. «الكزني بعصاه برفق». يعني أنه ينبغي الإصغاء للناس، إيه، ما رأيك؟ وضحك. لم تكن ضحكة ساخرة. وأحسست بالكرب الذي ينبعث فتعثرت. ماذا يريد مني؟ -لقد كان يريد شيئاً مني. عندها لاحظت إشارة إضافية. لقد كان مفرغ الجسد. أعني أنه كان يعاني من محنة جسدية، من نقص ما في جسده. أوه، لقد كان قوي البنيان. ويوجد لحم كاف تحت بدلته المصنوعة من التويد، وله عظام وأعضاء ممتلئة في تكورها، الحصة الكافية من كل هذا، ولكن في الداخل تخيلت تجويفاً داكناً خالياً يخفي هذا القدْرَ القليل من الغضب، لا القبضة المتأهبة لإرسال ضربة، بل نوع من تشكيل مشدود مثل تمثيل بياني لتوتر ثلاثي الأبعاد. على السطح أيضاً، نقص ما، بريق ما أساسي. كان يبدو مكسواً بشلال من الغبار الناعم مثل عصفور اندسَّ في جرس البرج. لم أره على هذه الصورة عند قدومي إلى هنا. كان الاكتشاف مجزياً. قبل ذلك كنت أخشاه قليلاً. عُدْنا إلى البيت. زجاجة الويسكي نصف فارغة موضوعة على حافة النافذة. رفعتُ ذراعه عن كتفي وملأتُ كأساً آخر. قلت: «هاك» «صحتك» آه.

عربة كبيرة مكشوفة مع أطفال مبتهجين يتجهون نحو الطريق. عند البوابة انجرت بزعيق الكوابح مثل سيارة ملساء صقيلة انزلقت من الطريق العام إلى الداخل وتقدمت نحو البيت دون أن تخفف من سرعتها. قال إدوارد: «يسوع، مريم، يوسف، عائلة ميتلرز». وتراجع إلى المطبخ. عند الباب، سمعنا قرعهم القوي، ثم سمعنا الأصوات تنبعث من الصالة.

قلتُ: «سأترك»،

«لا لن تفعل». مدَّ يده ليمسك بي وهو يعبُّ من كأسه. «أسرة مثيرة للانتباه، تعال لأعرفك عليهم»، وبحركة يده المرفوعة دفعني أمامه إلى الصالة.

كانوا في غرفة الاستقبال، امرأة فتية إلى حدٍّ ما، ترتدي ثوباً رمادياً ورجل بدين في حوالي الخمسين من العمر، وبنتان صغيرتان باهتتان، توأم، بشعر أشقر

طويل، مجدول وبجوارب بيضاء. قال إدوارد: «هذه باني، أختي، وتوم، توم ميتلر؛ هنا دولورس و آليس».

أشارت إحدى الأختين بسبابتها إلى الأخرى. «هذه آليس. «حيَّاني توم ميتلر وهو يلمس بأصابعه ربطة عنقه، وتمتم بكلام ما، مع ضحكة صغيرة خرقاء، وبعد ذلك أدى الخدعة الغريبة في التلاشي على الفور. نظرت زوجته إليَّ من أعلى إلى أسفل بانتباه لطيف. كانت قَصَّة قميصها صارمة والأكتاف المحشوة لسترتها منزلقة إلى الخلف، مثل زوج من الأجنحة الصغيرة المزركشة. وعلى لفائف شعرها الأشقر قبعة غريبة الشكل. يصعب القول إن كان طراز لباسها هو آخر طراز أبدعته الموضة أم أنه طراز قديم جداً عاد إلى الظهور ولكنه كان يضفي عليها مظهراً قديماً، كان بالإضافة إلى ذلك، مظهراً كئيباً. حدَّدت فمها بعناية، بأحمر قرمزي وتبدو وكأن حشرة مدارية استقرت على وجهها. زرقاء العينين، ولكنها أكثر جرأة. قالت: «اسمي ديانا» ضحك إدوارد. تجاهلته. هل أنت النزيل؟» أجبت: «نعم، أنا أقيم في النزُل».

«هل هو مريح؟» ورفعت تلك الحشرة الصغيرة الحمراء طرفي جناحيها ومضت. هل يمكنني الحصول على فنجان من الشاي شارلوت؟ أم أن هذا يسبب لك الإرباك؟

تهادت شارلوت وخرجت من حلقتنا الصغيرة، انتزعت نفسها فجأة. «أجل، أجل، أنا آسفة».

قالت أوتيلي: «سأحضر الشاي» ونهضت متراخية، أومأت إليَّ عندما مرَّت بالقرب مني.

كانت باني تنظر حولها وهي تمنح ابتسامتها المتكلفة لكل منا بدوره. وقالت: «هذا لطيف» وانتزعت الدبوس المعدني من قبعتها.

«ولكن أين هو الولد المحتفى بعيد ميلاده»؟

تمتم إدوارد: «إنه مختبئ» وغمزني.

قالت أخته: «يوم مليء بالتسلية» ونظرت إلى العصا التي لا يزال يمسك بها «هل أنت عائد من لعبة أو ذاهب إليها»؟ حرّك السلاح نحوها مداعباً. «لاتزال الألعاب في بدايتها، أيتها البنت».

قال توم ميتلر: «هاو! واختفى على الفور.

حدثت فوضى بسيطة عندما أحضرت أوتيلي الشاي على عجلة مخلّعة. تبعها مايكل، وهو يحمل إبريق الشاي بحفاوة كما لو كان يحمل كأس القربان. صرخت باني صرخة صغيرة عندما رأته وضيّق التوأم عيونه وتقدم؛ وظهر والدهما بسرعة ليقدم له هديته، خمسة جنيهات في مغلف بني اللون. قالت باني معتذرة: «لم يكن لدينا متسع من الوقت للتسوق. كم هذا لطيف يا أوتيلي. كعكة وكل شيء! هل تريدون أن أقوم بدور الأم. جلس الزوار حول الموقد الفارغ واستمتعوا بما يأكلون بينما كان أهل البيت يدورون بحيرة. تمتم إدوارد بكلمات ما وخرج. كانت باني تراقب الباب المنغلق وراءه ثم ذهبت إلى شارلوت مندفعة، مضيئة العينين، تموت لتعرف، أخبريني، أخبريني.

قالت شارلوت بعد لحظة صمت: «ليس أعني أتعرفين..».

وضعت باني فنجانها وجلست، تتأمل بأسف وتعاطف وهي تهز رأسها. «يا مسكينة؛ يا مسكينة. «ورفعت نظرها إليّ. «أعتقد أنك تعرف»؟

قالت شارلوت برقة: «كلا».

وضعت باني يدها على فمها. «أوبس، متأسفة».

عاد إدوارد يحمل زجاجة الويسكي: «هيّا بنا، من يتجرع كأسه دفعة واحدة؟» توقف، وقد أدرك أمراً ما في داخل الصمت المخيِّم. ثمَّ هزَّ كتفيه. قال:

«حسن، أنا أجرعها وأنت يا توم؟ أعرف أنك ستجرعها. «سكب لميتلر ولي مقدارًا من الويسكي. شكره ميتلر مداعبًا. رفع إدوارد كأسه. «نخب مَنْ نشرب»؟

قالت باني بسرعة وميض: «آب، السابع والعشرون منه» رمقوها بنظرات باردة. تذكرتُ.

قلتُ: «مونتباتن؟.» بعنف اغتيل واحد من عصابة أبطالهم المتضائلة. كنتُ مسحورًا: يجرؤون وحسب على تحويل حفلة شاي في قاعة استقبال إلى حفل تأبين. «شيء مخيف، مخيف».

سرعان ما تحررت من الوهم. ابتسمت لي بابتسامتها المقتضبة. «ولا تنسَ وارنبوينت؛ ثمانية عشر مظليًا ومعهم الماريشال. جميعهم منذ اليوم الأول».

قال إدوارد «يا يسوع، باني».

بقيت تنظر إليَّ لاهية ومتألقة. قالت بدعابة: «لا تلمْه، إنه عصامي من الغرب. أرى أن علينا أن نسمي شارعًا باسمه كما يفعل الفرنسيون. السابع والعشرون المجيد».

ألقيت نظرة سريعة على زوجها، وهو يعبُّ الشاي. قال بعضهم إنه محامي. يكبرها بعشرين عامًا. لما أحسَّ بنظرتي إليه رفع نظره وملَّس بيده المنمشة شعره الخفيف الرملي اللون. وقال بابتهاج: «إنها غائبة عن الوعي»!

صبَّت باني لنفسها قدحًا آخر من الشاي وهي تتكلف الابتسام. تمتم إدوارد بالغضب الكئيب لرجل يؤدي واجبه بحجة أضاعها منذ زمن طويل: «إنك تتكلمين عن الموتى».

قالت باني: «ما من خطأ في هذا البلد، إن مزيدًا من الجثث مثل تلك لا تُشفي الغليل. «ورفعت فنجانها بأناقة». ليحيا الموت. كعكة من صنعك شارلوت؟ رائعة».

أدركتُ بوضوح مثير ما يحدث لي دائماً مع الكأس الخامس، فإن شربت كأساً سادسة سأكون في حالة ثمالة شديدة.

فجأة، صرخت إحدى البنتين متألمة: «مامي، مامي لقد قرصني»!

رمقنا مايكل بنظرة عابسة، وانحنى على السجادة مثل عدّاء ينتظر الانطلاق. ضحكت باني. «حسن، اقرصيه بدورك!».

تغضن وجه البنت وهي تذرف دموعاً سخية. كانت شقيقتها تراقبها باهتمام.

قعقع إدوارد وأشار إلى عصاه: «مايكل، هل ترى هذه»؟

ابتعدت أوتيلي لصنع الشاي، وتبعتها. خارج نوافذ المطبخ كانت شجرة الكستناء ترفرف برقة في حملها الأخضر. وبدأ النهار بالتلاشي.

قلت: «مجرد امرأة، هذه الدايانا». هزت اوتيلي كتفيها بازدراء وهي ترقب ابريق الشاي. قالت بصوت ناعم: «إنها تأتي إلى هنا فقط ل» «ماذا»؟

«لا تهتم للثرثرة. ألم تسمع ما قالت لشارلوت: «أنت الشيء المسكين» وتكلفت ابتسامة: إنها تقززني».

بدأ ابريق الشاي يصفر بصخب مثل عصفور مجنون.

قلت: «إنه لا يبدو سيئاً، هل هو سيئ إدوارد»؟

لم تجبْ. عدنا إلى غرفة الاستقبال. لقد خيّم عليها نوع من صمت حالم. كانوا جالسين، يحملقون في لا شيء، مثل وجوه مسحورة في حكاية من حكايا الجنيات. رمقتنا باني بنظرة عجلى عند دخولنا وأضاء وميض اهتمام عينيها الصغيرتين القاسيتين. لعلها بارعة في اصطياد الأسرار. ابتعدتُ عن أوتيلي.

قالت باني: «أفهم أنك من أهل البيت».

أجبت: «الناس لطفاء» وحاولت الضحك. ساقاي لا تتحركان كما ينبغي. لم أعد أكترث بها. قرع إدوارد زجاجة الويسكي على كأسي. كان وجهه رماديا. صدمَني نَفسه، سحابة سمراء دافئة.

نظرت إلى شارلوت، الوحيدة بشعر أسود بين كل هؤلاء الشقر.

جلست مقوسة الظهر وأكتافها منتصبة، وذراعاها النحيلتان ممتدتان في حضنها، يداها الشاحبتان مشبوكتان، ظبية. شيء مسكين.

ارتعش قلبي. الضوء الأزرق في ساعة متأخرة يستحضر أياماً أخرى، يُحسُّ بجوهرها ولكنها بذاتها تبقى بعيدة عن الذاكرة.

شعرتُ أنني على وشك البكاء. طقطق إدوارد أصابعه وجلس إلى البيانو المخدوش ذي الأوتار العمودية. عزف بشكل شنيع وهو يؤرجح كتفيه ويدندن. حاولتْ باني الكلام في هذه الضجة ولكن لا أحد يصغي. جلس مايكل على الأرضية وفي منتصفها، وهو يلهو عابساً بالسيارة ـ اللعبة التي قدمتها له. أخذتُ يدي أوتيلي بين يدي. رمقتني بادئة بالضحك. رقصنا برصانة كما لو كنا دوقتين قلقتين، تدوران حول السجادة الباهتة الألوان. كانت باني ترمقنا بنظرة متأثرة.

بعد أن أنهى إدوارد معزوفته أوقف شارلوت وقادها وهي تحتج إلى البيانو. لمست المفاتيح صامتة للحظة ثم بدأت تعزف مترددة.

كانت موسيقا رقيقة، كأنها تأتي من طريق بعيد، من باطن شيء ما، وتخيلت علبة موسيقية، حركها نسيم طارئ، أو باب انصفق بعنف تغني في وحدتها أغنية، في بقعة منسية، في ركن سقيفة.

وقفت أتأملها، شعرها الأسود اللامع، عنقها الشاحب، ويداها اللتان تبدوان بين يديّ بدلاً من يدي أوتيلي. نور مساء، والشبابيك الطويلة ـ أوه، ظبية ابتعدت أوتيلي عني، وجثت على ركبتيها بالقرب من مايكل. مالت السيارة ـ اللعبة على جانبها مترنحة.

ضيَّق عينيه. كان، طوال هذا الوقت، يحاول تحطيمها. تناول إدوارد الشيء المشوَّه وتفحصه وأخذ يقلبه بين أصابعه الثخينة ببطء مرهق. نظرت إلى ثلاثتهم، إلى أوتيلي والطفل، وإلى الرجل ذي الوجه الشاحب، وثار في نفسي شيء ما كما صدى ينبعث من لوحة معتقة قديمة. يسوع، مريم، يوسف. كانوا يتراجعون ببطء، ببطء وكأنهم يتنافسون على قطعة من آلية مسرح تمَّ إلغاؤها. وبعد ذلك، بدا كل شيء باهتًا، باني، زوجها، ذريتهما، المقاعد والكراسي والفناجين المخدَّشة. تُركت أنا وشارلوت، في نهاية ماضٍ يُراجع كليًا في تلك اللحظة. حدَّقت برفق. على البيانو الجاثم هناك كأس فارغ، قبعة ورقية للاحتفال، وقلب تفاحة مسمَّر. تلك هي الأشياء التي نتذكرها. تذكرت أيضاً تلك الليلة وأتيلي تنتحب بين ذراعي. ولأول مرة تشعر بحضور إنسان آخر، وسمعت الموسيقا الخافتة ثانية وارتعشت من اللمسة الروحية للأصابع الشاحبة على وجهي.

قالت أوتيلي: «ما الخطأ؟ ماذا حدث»؟

أجبتها: «لاشيء، لاشيء».

كيف لي أن أخبرها فهي بعد اليوم لن تكون المرأة التي أضمها بين ذراعي.

جاء صباح اليوم التالي مع ما خلَّفه من الإسراف في الشراب، الاقتراب البطيء لإنذار يمتنع اجتنابه. هل قلتُ شيئًا، هل أفلتت مني إيماءة منبئة؟ هل تصرفت بطيش؟ تذكرتُ ابتسامة باني المصطنعة، أرنبة أنفها المرتعشة، وكنت لا أزال مع أوتيلي عندما حدث هذا. ومهما كانت النظرة ثاقبة فإنها بالتأكيد لن تلمح غوايتي بالقرب من البيانو. وبعد ذلك في الظلام لم يكن هناك من يراني باستثناء أوتيلي، وهي لم تلاحظ شيئًا من هذا القبيل. مثل ماذا؟ في كل حالة ثمالة تأتي لحظة جنون وهياج عندما تبدو كل معرفتنا المتراكمة عن الحياة وعن العالم، وعن أنفسنا. وإدراك مضحك، وفجأة ندرك أننا عباقرة أو مصابون بمرض محتوم، أو أننا عاشقون. الواقعة واضحة بسيطة لا يطالها الشك: فلِمَ لم ندركها من قبل؟

عندئذ نستعيد توازننا ويتلاشى كل شيء ومن جديد نكون ما نحن عليه، وجه مثير للضحك، هزيل، عاجز مع ألم في الرأس. عبثًا استلقيت على السرير في ذاك الصباح بانتظار أن يعيد الواقع ترتيب نفسه. ولكن ما حدث يبقى هنا: لقد وقعت في حبٍّ شارلوت لولس.

كنت مندهشًا بالطبع، ولكنني كنت أشعر بارتعاش مألوف من الخوف وقَرَف لا يخلو من اللذة. شيء ما يشبه تلك اللحظة في حفلة لعب في زمن الطفولة، عندما تنزع، بحرارة وارتباك، العصابة عن عينيك لتجد أن الطريدة الدافئة التي ترتعش بين ذراعيك ليست البنت الصغيرة بلفائف شعرها الداكن والصّدار المشدود وأنت لم تسمع تمامًا اسمها، بل الصبي البدين، أو أختك الأكبر المضطربة، أو وحسب الذراعان القويتان المنمشتان للعمة هيلدا. أو امرأة في منتصف العمر متزوجة، وغضون العمر تحيط بعينيها وبدايات شارب ولم تنطق بأكثر من عشرين كلمة معي وهي تنظر إليَّ كما لو كانت ترى من خلالي وإن لم أكن بكامل الشفافية. كانوا جميعهم يجلسون على السرير بقربي. جميعهن متشابهات يجلسن على السرير مع ابتسامة وقحة: الحب.

لقد انجلت الآن الخطة السرية للشهور الماضية. في ذاك اليوم الأول، عند مدخل النزل ألفيت نفسي أقدم لها أجرة شهر. وثانية هبطت متلكئًا المنحدر المعشوشب باتجاه البيت الزجاجي، جلست في مطبخها، في ضوء الشمس أتأمل ظلال أوراق الشجر وهي تتحرك بالقرب من يدها. كنت مثل فنان يراجع خطة عمل انجلت فجأة بشكلها الكامل وبكل تفصيلاتها انجلاء يبلغ حدّ الروعة، ولا يزال في طراوته يبنيها هناك وهناك. أوتيلي مقدمة يعزفها المزمار، للموضوع الأساسي اللاحق، وأحيانًا يؤدي إدوارد فترة الاستراحة الهزلية، الأبله المتعثر في المعزوفة، ومايكل ملاك الحب (كيوبيد) الذي لم أقدر مكر هدفه حق قدره.. حتى مناخ الصيف كان جزءًا من الحبكة.

بالطبع وُجدت لحظات أمكن أن يبدو الأمر كله وهمًا خلالها لا بدَّ من

الإشارة إلى واقع الحياة التي أحياها هنا الكستليتة المحروقة، والحمام الذي لابدَّ من تنظيفه ـ كان واقعاً بعيداً عن الصورة التي أتمنى: الأكاديمي الهادئ في عزلته مع الكتب والغليون والمصباح وهو يرفع نظراته المحزونة الآن وغداً نحو كتلة الليل المتألقة المطلة من النافذة.

عندما أتت أوتيلي إليَّ رأيتُ نفسي مثل واحد من هؤلاء النبلاء المأساويين في روايات قديمة يؤاسون أنفسهم مع فتاة تعمل بائعة في مخزن، أو مع ممثلة مغمورة، مثل لعبة نصف حية طفولية في تصرفاتها ومجهولة الاسم، قسمة لا تشبهها فتاتي الشقراء الضخمة. ولكن عندئذ تتلاشى الشكوك فجأة كما أتت ويأخذ الحلم جناحه ثانية إلى السماء، عندما لمحتها تأتي من البيت الزجاجي وهي تحمل الورود بين ذراعيها، أو بنظرة خاطفة ألمحها شاردة في أفكارها وراء نافذة طويلة تنعكس فيها شجرة واحدة وسحابة برونزية اللون. ذات مرة بينما كنت أصغي مسترخياً للإرسال الذي تبثه السفن، رأيتها تخرج إلى عتبة الباب في ضوء المساء الشاحب وتنادي الطفل، ودائماً وحتى الآن أفكر فيها عندما أسمع كلمة فينيستير (Finnisterre)(*).

في مثل تلك اللحظات يمكن للمرء أن يشعر بالذاكرة وهي تجمع مادتها، وتمور ببريق الرغبة والطمع مثل مصور مجنون. لا أعني المشاهد الرحبة، غروب الشمس، وتصادم السيارات، بل أقصد لقطات متغضنة بالأسود والأبيض التُقطت في ضوء رديء في أفق مبتور الجانب وتلك اللطخة التي يطبعها الباهم على مقدمة الصورة. هكذا كانت صورة شارلوت في ذهني. في أفضلها لم تكن أبداً حاضرة، أحدهم هزَّ مرفقي أو أن الفيلم كان من نوعية رديئة. أو بالأحرى كانت حاضرة وانسحبت بابتسامة حزينة. ما بقي منها هو توهجها وحده. هنا كرسي خالٍ في ضوء المطر، أو أزهار مقطوفة ألقيت على مقعد، أو نافذة مفتوحة مع نور يتراقص

(*) م. Finnisterre: رأس مرتفع على البحر في الشمال ـ الغربي لإسبانيا.

بعيداً في الظلام. في تلك المشاهد كان غيابها ينبض بشكل يتفوق بشدَّته وحدَّته على كل حضور. كنت أخفق في العثور على الكلمات التي تصفها. مثل هذه الكلمات غير موجود. وهي لا تحتاج إلى أن تكون أكثر من شكل من أشكال القصد، متأرجحة على حافة القول، ترجمة أخرى للصمت. أخفق في كل إشارة أشير بها إليها. حتى عندما لا أذكر أسمها يبدو الأمر مثل مبالغة. عندما أكتب ذلك يبدو الأمر مضخَّماً بشكل غير معقول وكأنَّ قلمي زلق ثمانية أو تسعة أحرف مكررة. حضورها المادي ذاته يبدو مبالغة، تمثيل ركيك لماهيتها وكأن تلك الماهية لا تُلْمَح إلا بانحراف العين، على الطرف الخارجي للرؤية، صورة موجودة هنا دائماً، ودائماً تنطلق بسرعة مثل شفق ضوء لامع على شبكة العين.

لئن لم تكن أبداً حاضرة كلياً بجسدها من أجلي، فكيف لي أن أحضرها هنا من أجلي في البيت، ليلاً، أو في الحقول عندما أهيم وحيداً على وجهي؟ عليَّ أن أركز على الأشياء التي تتوهج عند مرورها. لا شيء، قبعتها الشمسية، الجزمة الملوثة بالوحل الموضوعة خلف الباب. كانت الصورة المألوفة جداً لتلك الأشياء التي تذكِّر بها تجعل منها أشياء ثمينة. وواقع كونها ملكي تماماً. حتى وإن لم تكن تعرف أهميتها السرية. رقعتان صقيلتان بشكل قلب في الوجه الخلفي لتلك الجزمة ارتسمتا بفعل احتكاك ركبتيها أثناء المشي. الشبكة الرقيقة من الضوء والظل الذي يتراقص على وجهها من خلال القش المتدلي لحافة قبعتها. من يمكنه أن يلاحظ مثل هذه الأشياء إذا كان لا يركز نظره عليها بالعدسات المقرِّبة للحب.

الحب. هذه الكلمة. يبدو أنني أسمع مقتبسات حولها وكأنها عنوان لشيء ما، قصيدة رنانة كتبها شاعر فضي. هل يمكن أن نحب أحداً لا نملك منه إلا القليل؟ لأنه من خلال الضباب أحياناً كنت ألمح، وإن بلمحة بصر حقيقة، أن ما أملكه منها لم يكن كافياً ليحمل ذاك القدر الكبير من الهوى. لعلك تسميه تكثيفاً، تكثيف قصد المصور على استخراج الصورة الحية من الاحتمال الكامن في مجرد اللون.

أريد أن أجسدها. بقوة انتباهي العنيد والدقيق ستَقف رصيف الأسقلوب(*) من خلال الأمواج وتكون.

لم أفعل شيئًا بالطبع، ولم أتفوه بكلمة، ولم آت بحركة. لقد كان هوى الذهن. تخليت عن كل ادعاء بالعمل لإنجاز كتابي. تدركين العلاقة.

لست أدري إن كانت تحس بمراقبتي لها بهذا القدر من الهوى. بين حين وآخر أشعر بارتباكها كما لو أحسَّت نَفَسي يمسح جسدها. لها أسلوب في تقديمي فجأة مع فتات من حقيقة تظهر تلقائيًا، مثل نفاية تُلقى لتلهي انتباه كلب تخشى أن يعضها. تدير رأسها، تنظر للحظة إلى كتفي اليمين، أو إلى إحدى يديّ، بتلك النظرة الغريبة الغائبة وتقول: استورد والدي تلك الشجرة من جنوب أمريكا. وأنا أومئ مستغرقًا في التفكير حزينًا متجهمًا. ومنها تعلمت أغرب الأشياء. لماذا «الهاها» سُمِّيت بهذا الاسم. ومنها تعلمت أن فينلندا كانت أول بلد أوروبي يمنح المرأة حق التصويت. أحيانًا كنت أستطيع الربط بين هذه المنظومات الغامضة وبين شيء ما قلته أو استفسرت عنه منذ أيام، ولكنها كانت في معظمها بلا صلة يمكن إدراكها. وبعدما تتكلم تنظر إليّ للحظة وكأنها تنتظر إشارة واضحة عن اعترافي بأنها متينة وأنها تعرف أشياء كثيرة مثل الناس الحقيقين. أو أنها كانت جافة جداً وغير حقيقية حتى تسترعي الانتباه.

أذكر يومًا من أيام السبت عندما كانت تستعد للذهاب إلى المدينة لتسليم بضاعة من المشاتل وطلبت منها أن تأخذني معها. كانت السماء تمطر، والحقول غشاوة منطلقة بسرعة وراء النوافذ الضبابية. كنا قد تجاوزنا القرية عندما رفعت قدمها عن الدوأسة وتركت السيارة تسير ببطء لنتوقف. قالت: «ثقب». ولكنها لم تخرج من السيارة. كنا ننظر صامتين إلى شجرة تفاح برية، تتلألأ أمامنا في الحاجب

(*) الأسقلوب: نوع من المحار بشكل مروحة.

الزجاجي السيَّال. صعدت الدواليب من جانبي فوق حافة العشب، وكان كل شيء ملتوٍ بدرجة خفيفة. لحظة غريبة، ما زلت أذكرها، المطر وصوت المطر والملمس البالي الدبق لمقعد السيارة. رفعت نظارتها وسقطت خصلة من شعرها على وجهها.

فيم كانت تفكر؟ لم أكن أحب أسلوب حملها لنظارتها على طوق، كان يجعلها تبدو مثل امرأة كهلة متزوجة. وفجأة في داخلي همهمت عجوز شمطاء:

ثم أُسكِتَتْ: مضت دقيقة من الزمن. فتحت نافذتي لتتسرب منها رائحة نبتة «صريمة الجدي»، والأرض المبتلة. مسحت شارلوت الزجاج الحاجب للسيارة المغطى بالضباب برأس الأصبع. وقالت: «لعلَّ علينا الرجوع إلى البيت»، ثمَّ وهي تنظر إلى ركبتيَّ: وتكلمت العرَّافة: «إدوارد ليس بحالة جيدة». أومأت برأسي مثل كاهن يتساءل عن المزار. ماذا تتوقع مني؟ ومهما كان ما تتوقع فليس بوسعي أن أعطيها إياه. وبشيء من اليأس التفتت إلى الأزهار وسلال الفواكه الموضوعة على المقعد الخلفي للسيارة. عيناها، ماذا كان لون عينيها؟ لا أذكر! حركت السيارة. وانطلقنا.

هكذا، دائمًا.

في البدء كنت أخشى افتضاح اللعبة، أمسك فجأة بيدها وأقبلها أو أثمل مرة أخرى وأقع عند قدميها منتحبًا، شيء ما من هذا القبيل. ولكنني بالطبع لم أفعل. كنت مثل عروس في ريعان الشباب اندفعت إلى البيت لتخبر زوجها بتأكيد الحمل، وفجأة تشعر بالخجل والغرابة من مرأى الأشياء المألوفة، قبعته، وتلك «الصوفا» الجديدة، وحوض الجلي (المجلى). في منتصف العمر ضممت هذا السر المحترق في صدري. لقد منحني ذلك إحساسًا بالكرامة، بالحكمة الهادئة. أمن أجل هذا يكون الحب حقًّا، ليمنحنا تصورًا جديدًا عن ذواتنا؟ أحسست أن صوتي صار أكثر

عذوبة وبدت لي كل حركة موجّهة بعظمة حزينة. وابتساماتي المشوبة بالأسى كانت مثل حمد وتبريك للعالم.

كما خشيت أيضًا انكشاف سري أمام أوتيلي إذا ما لمست مني جفوة مفاجئة، ولكنني، والحق يقال، كنت أكثر تعلقًا بها الآن من أي وقت مضى، بل شعرت أيضًا بودّ نحو إدوارد، كما أحسست بالاهتمام حيال الولد (عند مسافة مأمونة). لقد كانوا أقرب مني إلى شارلوت في الحيِّز المشترك لأوقات وجبات الإفطار وعند النوم. لقد كانوا سدنة ذاك الشيء الأثمن، ماضيها. ولكنهم لن يبلغوا أبداً درجة قربي منها في حبي لها، الأمر الذي لا يمكن لومهم عليه، بل الإشفاق وحسب. أمضيت ساعات طوالاً مثل عنكبوت باسم يحيك الشباك ليوقعهم في الكلام عنها بحيث يظهرون دائمًا وكأنهم هم الذين بادروا إلى الكلام في هذا الموضوع. الأمر الأصعب كان في إبعادهم عن الخوض في موضوعات على أن يبدو دخولي أمرًا عارضًا بشكل محكم: ولكن ما كنتم تقولونه عن شارلوت مثير للاهتمام، أحقًا لم يكن لها خِلّ قبل إدوارد؟ واتّقدت جمرة من الذعر في صدري عندما توقفت أوتيلي ورمقتني بنظرة وقد فاجأها نشاز الجمع بين كلمتين: مثل شارلوت وخلّ. لقد كان صَوْن سري المهمة التي تستغرق وقتي كله، وأحيانًا أكاد أنسى المحبوبة نفسها بسبب ثراء مهمتي وتشعبها. عندما كنت أحتضن أوتيلي، كنت شديد الحرص على التزام الصمت خشية الخطأ في الاسم. ولكن كانت هناك لحظات أيضًا لم أكن واثقًا فيها أي من الاسمين هو الصحيح؛ في لحظات أخرى كان الاسمان يتشابكان. في البداية كنت أستحضر شارلوت لتكون وحسب شاهدة على الرياضة التي تمارسها فوق سريري الضيق لتنحني نحونا، أوتيلي وأنا بالانتباه المشدود لروح ليلية خالصة محصنة ضد رغبة الجسد مع كل العطف على هذين البائسين المتصارعين بين الأغطية ولكن مع مضي الوقت تأتي لحظة التوقف، وعلى السارية أن تنشر أجنحتها (أشرعتها) الرقيقة ترمي بعيداً خيوطها الحريرية. وبنظرة استسلام ساحرة تنضم

إلينا، وعندئذ، في ضوء القمر، يستحيل ذهب شعر صديقتي بنت الإنسان إلى السواد وتشحب أصابعها، وتصير شيئًا جديداً، لا يكون هي ولا الأخرى بل شخص ثالث ـ شارلوتيلي!

كان هناك رابع أيضاً هو الصورة الأخرى لي يقف جانبًا يرقب ظاهرة هذا العشق، ومهرجي الذي يلازمني بابتسامة ساخرة، مندهشة، وفي بعض الأحيان مرتبكة. كان هو الذي يستمر، لا أريد أن أقول الحب، بل في تقييم أوتيلي: مرحها وسخاؤها، صبرها، ولعها الحزين الذي تغدقه عليَّ. هل كان هناك أوتيلي ثانية، رفيق أصلي لشخصي الآخر. هل كان الجميع في (فرن) ينقسمون ويتكاثرون هكذا مثل إميبات؟ في هذا التكاثر لأنواتٍ(*) متعددة بدا لي أنني أرى القوة المروعة لحبي، التي بدورها تقوم بإقناعي ثانية بعمق صدقه من جديد.

لعل هذا الإحساس بالانزياح هو الظاهرة الأكثر غرابة والأصعب على التعبير. كان مفهوم زمن خارج الزمن، لهذا الصيف مثل وحدة مكتفية بذاتها مفصولة عن زمن العالم المألوف. الأحداث التي قرأت عنها في الصحف لم تكن غير حقيقية، ولكنها حقيقية بعيداً هناك وحسب، وأنها عادية على نحو يمتنع تغييره. لقد كانت (فرن)، من جانب لآخر، بتفصيلاتها اليومية غريبة بشكل يتجاوز قدرة التعبير، غير واقعية ولكنها كانت حيَّة في لا واقعيتها كما لو كانت مأخوذة بتأثير تنويم مغناطيسي. لقد عيش كل شيء من قبل وكنا نرسم بدقة مجموعة نماذج وكأننا لا نحيا حقًّا بل نتذكر. وكما أنني رأيت نفسي مع أوتيلي على سرير موتي، رأيت هذا الصيف كما لو كان جزءاً من الماضي راسخًا لا يتزحزح شفافًا وكاملاً. لقد توقف المستقبل عن الوجود. وطفوت كسولاً مثل سابح في البحر الميت يلعقه من كل جانب حساء أزرق دافئ من انعدام الزمن.

(*) أنوات: جمع أنا.

بشكل ما كنت أيضاً أعود إلى الكتاب. كنت أحتاج إلى شيء ما أركز عليه إلى مرساة في هذا العالم العائم التائه وهل يوجد ما هو أفضل من كتاب ضخم ودسم يستند إليه عاشق يائس؟ كنت جالساً إلى مكتبي أمام النافذة وشجرة الليلك المضاءة بالشمس عندما افتكرت الكاهن كوبرنيكوس في (فرونبورغ) ونيتشة في (لانغادين)، وافتكرت نيوتن نفسه، كل هؤلاء الأبطال الباردين ذوي الهامات السامقة الذين تخلوا عن العالم وعن السعادة الإنسانية لمتابعة تلك اللعبة الكبرى للفكر. صورة حلوة ولكنها تكاد لا تكون حقيقية. أنجزتُ عملاً صغيراً. حذفت جملة أو جملتين، أعدت ترتيب إحدى الفقرات، وصححت بعض الأخطاء اللغوية وبالضرورة عدت ثانية إلى الرسالة الثانية والأطول من الرسالتين الغريبتين اللتين كتبهما إلى لوك؛ الرسالة حيث يتكلم نيوتن بأنه رأى وسيلة لتفسير طبيعة مرض مزمن، إذا ما كان ثمة مرض مزمن ألمَّ بي خلال الصيف الذي مضى. لقد بدت الرسالة الآن وكأنها تقع في بؤرة عملي وربما أيضاً في بؤرة عمل نيوتن وهي تعكس وتحتوي كل ما تبقى، صورة شارلوت وعالم (فرِن) برمته، كما في مرآة مقعرة. شيء ما عبَّر عنه وفُهِم، وفوق ذلك غُفِر له إن لم يكن في السطور ذاتها فبينها حيث يخفق توتر غير عادي وباعث على الشفقة. أراد بشدة أن يعرف ما هذا الذي حدث له وأن يقوله وكأنما الخلاص سيكون في هذا القول وحده. يذكر بهدوء غير معتاد تحدي لوك لثوابت المكان والزمان والحركة التي تتأسس عليها صور الكون الميكانيكي في كتاب «المبادئ»، وتندفع ثانية إلى الخارج ولكن بدون القناعة القديمة، الدفاع عن أن مثل هذه الثوابت توجد في الله، وهو كل ما كان مطلوباً منهم. ولكنه بشكل مباغت يتكلم عن الجولات التي يقوم بها الآن على طول ضفاف نهر «الكام»، وعن التقائه، لا مع رجال الكلية العظماء بل مع تجار وباعة وحرفيين. كانوا يبدون وكأنهم يريدون إخباري بشيء ما؛ لا عن تجارتهم، ولا حتى عن أسلوب حياتهم، لا شيء على ما أعتقد بالكلمات. إنهم، إن شئت فهم ذلك، هم أنفسهم الأشياء التي يمكن أن يحكوها. إنهم جميعهم شكل من

القول ـ وهناك تتوقف فجأة، بقية تلك الصفحة الممتنعة على القراءة (بسبب أثر حرق، ربما؟) كل ما تبقى هو عبارة وجيزة: أستاذي العزيز، لا تتوقع مني مزيداً من الفلسفة يخطها قلمي. فاللغة الإنكليزية، بل هي لغة لا أعرف كلمة واحدة من كلماتها؛ فلسفة الأشياء المألوفة فيها تكلمني؛ قد أعبر لأبين دوافعي ومسوغاتي أمام قاضٍ مجهول. وعندئذ يظهر ذلك التوقيع البارد، الشجاع والمنقوش تقريباً: نيوتن. ماذا يقصد، ماذا كانت تلك الأشياء المألوفة التي قيلت له، وأي سر كانت تفضح؟ وهكذا جلست في ظل الليلك، أرعى حباً غير متبادل وأقرأ وصية رجل ميت وأحاول فهمها.

* * *

مهما كان شعوري حيال أوتيلي في البداية، لم يبق منه الآن إلا رغبة الجسد، والضيق وشيئًا ما من إشفاق متبرم. أحست بالتغير بالطبع، وبدأت باختباره. باتت تتردد على النزل أكثر مما مضى وكأنها تريد اختبار قدرتي على التحمل. قالت إنها تريد أن تبقى الليل بطوله، ولن تأبه بما يراه أهل البيت. وعندها تنظر إليّ بدون أن تصغي لاعتذاراتي، وكانت ترقب عيني دون أن تقول شيئًا. باحتراس، بدأت أحاول الابتعاد عنها. تحدثتُ بإسهاب عن الحرية. لِمَ نقيد أنفسنا؟ فالصيف شارف على الانتهاء. وأنها في ريعان صباها لا يحق لها أن تضحي بأحلى لحظات حياتها مع أستاذ عجوز أعجف. تضيقت عيناها. وبدوري تساءلت عن قصدي ـ ولكن لا، هذا غير صحيح، عرفت ذلك جيداً. إنها مراوغة لا رحمة فيها ومسلية. منْ يعرف الرائحة العذبة للقوة مثلما يعرفها العاشق الهارب والمتخلي عن كل مطالبة بالإخلاص؟ تخيلت جسدها المحروث من قِبَل آخر، بلا وجه، ومع ذلك كنتُ مزهواً، بمعرفتي أنني لا أحتاج إلاّ أن أهمز اللجام قليلاً لتعود إليَّ مسرعة.

في تلك الأيام أعدت النظر إلى ذاتي ولم أحبْ ما رأيت.

أمضينا ساعات في السرير، ساعات الظهيرة نتصبب عرقًا بين الأغطية. ابتكرنا أوضاع جديدة، تنويعات غريبة تتركنا لاهثين مضطربي القوى. جعلتني أقيد يديها وأوثقها بالمقاعد، بقوائم السرير. مارسنا الحب فوق الأرضية أو مستندين إلى الجدار. لو أنها تثق أن مايك لن يظهر فجأة من تحت الفروة لجرتني عاريًا إلى الخارج لنمارس الحب فوق العشب. وعندما تنزف نبتكر مجموعة من التسويات اليدوية. ما من جنية استطاعت أن تعمل على فنها الأسود ببراعة تفوق براعتها.

كنت أحيانًا أشعر بالخوف من ذلك السحر المحموم للحواس، جاثيًا أمامها ووجهي في حجرها أحملق بصمت مفتون بالشعر المائل إلى سواد، واللون

البنفسجي لطيتي جنسها، بشكلٍ مفاجيء أحس بشيء ما يضطرب بعيداً عني مثل مخلوق من صنعنا مسَّه ضرَ، ويتألم جاراً طرفه المسودّ أرضاً وهو يئن. كانت صورة إثم، صورة خجلي ويأسها ومجرد الخوف من الحمل وأيضاً صورة أشياء دفينة. وفي ذلك الظلام ضوء، الحضور الشاحب لثالث يرافقنا على الدوام كان حيلتي الخاصة التي ألوذ بها.

«انظر إليَّ!» قالت أوتيلي، «انظر إليَّ عندما نمارس الحب، أريدك أن تنظر إليَّ!» نظرت إليها وكان الأمر سهلاً. وبعد تلك النوبات من الحب الشبحي كان يصعب عليَّ أن أواجه شارلوت.

بدا لي، بشكل غريب، أنني الآن أرى أوتيلي بوضوح أكبر وأكثر من أي وقت مضى. وفي ابتعادها عني اكتسبت التحديد الدقيق لشكل يُرى من خلال الطرف غير الصحيح لتيلسكوب، صغير ومكتمل بكل تفاصيله. على أية حال، منذ البداية زعمت أنني فهمتها تماماً وليس ثمة ما يستدعي الكثير من التفكير فيها.

أفترض أن ذلك كان السبب في أنني لم أسألها أبداً عن الولد. والآن يبدو لي أن إحجامي عن السؤال عنه أمر لا يُصدَّق. لعلها لم تتجاوز السادسة عشر من عمرها عندما ولدته. مَنْ كان أبوه - عامل في مزرعة، ذكر من الجوار أو لعله بائع متجول طرق الباب ذات يوم فأسرتها طلاقة لسانه ونظرته الماكرة؟ ما شككت أبداً أنها أمه. ولكنها لم تقل شيئاً، وبدوري التزمت الصمت، وبمضي الأيام والشهور على السؤال الذي يُسأل، بَهُتَ لونه مثل إشارات طريق سريع كبير جداً تلاشت من كثرة ما نُظِر إليها بحيث باتت رسالتها بكماء.

لا أذكر بدقة متى بدأ الهيكل العظمي يفرقع عظامه بطارئ جديد في خزانة أسرة لولس. ربّما كان ذلك يوم حفلة مايكل، التفتُّ محملقاً نحو البيانو، ورأيت ثلاثتهم، إدوارد وأوتيلي والطفل يقفون في ضوء شمالي يتسرب من النافذة مثل

نماذج للوحة «عذراء الصخور»(*) ولكنني على الأرجح كنت أتخيل. على أية حال، كان ذلك فيما بعد وقبل أن أبدأ التفكير جدياً، عندما كان حبي لشارلوت يطالبني بشيء آخر، تآمر بكل معنى الكلمة للحفاظ على صحبته. آنذاك كان كل شيء ليّناً، وكان كل شيء ممكناً. ذات يوم أحد، مثلاً، لاحظت أوتيلي عَرَضاً أنها تملصت من مرافقة الأسرة التي غادرت لحضور القداس كي تبقى معي. القداس؟ أكانوا كاثوليك؟ كان لا بدَّ لي من القيام بمراجعة شاملة للصورة التي رسمتها لهم في مخيلتي.

ثم كان اليوم الذي انطلت فيها عليّ تلك الحيلة الغريبة التي حبكتها. جاءت إلى النزل، لاهثة وقد ارتسمت على فمها ابتسامة عريضة. إدوارد وشارلوت في دبلن، ومايكل في المدرسة. قالت ويداها مدسوستان في جيبيها، والأكتاف منحنية وهي تتراقص مقلدة أحد نجوم السينما: حسن، أنت لم ترَ غرفتي بعد. اجتزنا الدرب في ظلال شجرات الجميز. كان يوماً من أيام القرن الثامن عشر، متألقاً، المسافات قريبة كلها واضحة الحدود وكأنها رُسمت على الخزف. كانت أوراق الأشجار جافة تفقد خضرتها وتنذر بزوالها، أخذت يدها، دفعني إلى ذلك إيحاء حزن فصل الخريف، وتذكرت فجأة وبحيوية بقدر ما زلت أستطيع ذلك، المرة الأولى التي رأيتها عارية. في القاعة، توقفت ونظرت حولها إلى الساعة، إلى المرآة، وعصا لعبة «الهورلي»(**) الموضوعة في قاعدة المظلة.

أمعنت النظر وقالت: «أكره هذا المكان» وقبلتها وهي منفرجة الفم بإحساس عذب بالإثم. هدّأنا مرأى غرفة الولد؛ زحفنا لتجاوزها. عند الباب الثاني ترددت عاضة على شفتها ثم دفعته. كان السرير يشبه حيواناً جاثماً هناك مع زينات لولبية ومقابض من الخشب. كانت تنبعث من المكان رائحة ملابس قديمة وبودرة وجه. في

(*) م. لوحة من أعمال ليورنادو دوفنشي.

(**) م. لعبة إيرلندية.

الزاوية وورق الجدران المورَّد وقد انسلخ عن الجدار عند رقعة رطبة. هل يوجد مكان أكثر حميمية من غرف نوم الآخرين؟ كانت النافذة مطلة على مرج بالقرب من مسكني. قلت لها: «أرى أنك تستطيعين مراقبتي» وضحكت ضحكة كابية مثل بائع جوّال في ماخور.

ألقت على النافذة نظرة زائفة. وكانت في منتصف تعريها، وعلى الوسادة شعر أسود كما شرخ في الزجاج.

اضطجعنا فترة طويلة بلا حراك، صامتين وقد هجرتنا الرغبة. والشكل المضلع لضوء الشمس يتحرك خلسة على الأرض بالقرب من النافذة.

وفي السماء الشاحبة راقبت سرباً من الطيور يطير بصمت على ارتفاع كبير فوق الحقول. وانبعثت ذكرى طفولة وبقيتْ لحظة عارضة ذهب أجنحتها التي تخفق بكسل ثم تبتعد من جديد بدون أن تترك أي أثر.

قبّلت الأيكة الرطبة لإبطها، ربتتْ على وجنتي وبدأت بقول شيء ما ثم توقفتْ. بإمكاني أن أحسَّ بها وهي تحاول إخراجه من رأسها؛ انتظرت. توجد مثل تلك اللحظات، مضيئة وساكنة يندلع أثناءها أسوأ وأعمق خوف في القلب مع البراءة الحالمة لزورق من الورق يتماوج فوق سطح الماء في حوض صغير.

قالت: «فقدت الاهتمام. أليس ذلك حقّاً»؟

عند زاوية النافذة ظهرت سحابة صغيرة مثل نفثة دخان. الصيف هو أكثر الفصول خَفَراً.

«لِمَ تقولين ذلك»؟

ابتسمتْ. «إذن تقول لي إن هذا غير صحيح!». كان لها طريقة في النظر إلي، نظرة متمعنة هادئة وكأنها لمحتْ خطأً صغيراً في بؤبؤ عيني وكانت في حيرة، هل تشير إليه أم لا.

«غير صحيح»

«هل أفهم من ذلك أنك تحبني الآن؟» قلت متبرمًا:

«أوه، كل هذا الحب. لقد تعبت منه».

«هل تريْ تلك السحابة؟ ذاك هو الحب. تأتي السحابة، تعبز السماء، ثم...»

«تمضي».

صمت.

جلستْ وهي تحضن الغطاء. وبحدة قالت: «حسن، هلاً أخبرتك بأمر ما؟ وجهها فوقي، مصغَّر، يلمع في انعكاس ضوء الشمس. كان للحظة، مثل قناع شرقي. «هذه ليست غرفتي».

ماذا؟ غرفة مَنْ إذن..؟» صكت أسنانها. «يا يسوع، أوتيلي وثبتُ مثل قطعة محترقة ووقفتُ عاريًا مذعورًا، محملقًا. ضحكت وقالت: «ليتك ترى وجهك»، «احمرَّ حتى الأذنين». «مجنونة أنت» أحسست بإحساس غير مألوف: اشمئزاز، وشيء من الذعر، وغضب لا يُصدَّق. استدرت أبحث عن ملابسي. شعرت وكأنني تحولت إلى قطعة من الجليد، وكأن العالم يمكن أن يتوهج من خلالي دون أن يصادف أي عقبة: كما لو كنت ظلَّ زئبق في خيال مرآة شخص آخر. أي شيطان تَلَبَّسها حتى تأتي بي إلى هنا. ألمْ أكن الوحيد الذي وقع في شباك مكيدة جنسية ونكران الذات. قالت مدمدمة: «أنا ذاهبة إلى الحمام..» واندفعت إلى خارج الغرفة. ارتديتُ ملابسي ووقفتُ في حرج، أتنفس من فمي حتى لا أشتم الرائحة المنبعثة من الحياة الحميمة لأشخاص آخرين. كانت بلادة إدوارد، والأسلوب الذي تتلمس به أصابعه السجقية الشكل، الأشياء، هو كل ما استطعت التفكير فيه. قد يقع كتاب بين يديه مثل عصفور مروَّع، تئز صفحاته، وتنفصل عنه

جلدته المغبرَّة، بينما هو ينظر إلى بعيد ويتكلم من فوق كتفه حتى يقع الشيء المهشم بلا حراك وقد انكسر محوره. عندئذ ينعم النظر فيه بنوع من التساؤل الآثم. كيف أمكنني أن أسيء التصرف مع رجل مثل هذا الرجل؟ أدركت أنني أحسست كما يمكن أن أحس لو أنني زنيت بزوجته. رجعت أوتيلي من الحمام، وجلست على حافة السرير ولفّت نفسها بذراعيها. «أشعر بالبرد».

«بحق المسيح، أوتيلي ـ» قالت: أي ضرر في ذلك؟» «لن يعرفوا أبداً.» نظرت إليَّ بحقد متجهمة، طفلة كبيرة عارية.» «ظننت أنك قد تحب... هنا... هذا كل ما في الأمر».

«إنك مجنونة».

«لا، لست كذلك. أعرف الكثير» وأردفت بخبث: «أستطيع أن أخبرك بأمور كثيرة».

«ماذا تعنين»؟

«عليك أن تجد هذا بنفسك، ألا تريد؟ أنت لا تعرف شيئًا. تعتقد أنك ذكي جداً، ولكنك لا تعرف شيئًا».

صفعتها. حدث ذلك في لحظة، وبدقة مفاجئة ومُرْضية بحيث لم أكن أصدق أنني لم أتصوره. جلَستْ بهدوء تام، ثم رفعت يدها إلى خدها المحمر. وشرعت تبكي بصمت. قلتُ: «آسف،». غادرتُ الغرفة وأغلقت الباب ورائي بعناية ورفق، كما لو أن أقل عنف سيهشم قطع شيء ما هناك مهشم ولكنه ما زال مجموعة متماسكة من القطع الهشة. في الخارج، في ضوء بعد ساعة الظهيرة، كنتُ لا أزال أشعر أنني مجرد وهم ولكنني على الأقل أستطيع التنفس بحرية.

لقد أفسد حَدَث ذاك المساء كل شيء. نظرت إلى الآخرين نظرة تملؤها الريبة. لقد تغيروا مثلما يمكن أن يتغير شخص ما عرفته طوال حياتك يضحك

ضحكة مهووسة ومهددة، في حلم لا يُذكَر منه إلا نصفه. حتّى الآن، كان كل منهم كيانًا مستقلاً. لم أفكر فيهم مثل زوج وزوجة، أم وابنة شقيق، عمة ولكن الآن، وعلى نحو مفاجئ كانوا أسرة، رابطة مغلقة وسرية. وشغلت ذهني أسئلة غريبة. ماذا يعني أحدهم للآخر حقًّا؟ بِمَ تشعر شارلوت إزاء الولد؟ هل يشعر إدوارد وشارلوت بحقد على الحضور اليتيم لأوتيلي؟ هل كانت المرأتان تشعران بالغيرة، الواحدة من الأخرى، هل تحاصر إحداهما الأخرى بحذر كما هو حالي وحال إدوارد؟ وكيف يرونني، كيف يتصرفون عندما لا أكون معهم، هل يتكلمون عني؟ ماذا يرون عندما ينظرون إليَّ؟ نوعًا من ظل، خدعة بصرية، شبحًا صار مألوفًا لم يعد يخشاه أحد؟ شعرت بخجل جديد بحضورهم مع إحساس بالجبن. كنت مثل عالم أنتروبولوجي مرتبك يدرك أن ما رآه لشهور عديدة مثل اضطراب عادي لحياة قبيلة هو في حقيقة الأمر احتفالية كبرى متشابكة، حيث تكون أقل حركة منسقة سلفًا وأساسية وأنه وحده العنصر الغريب غير المناسب بينهم.

رجعتْ كل الأسئلة إلى السؤال الواحد: لماذا اختارت تلك الغرفة؟ اندفاع؟ مجرد نزوة؟ أم أنها أدركت الرقصة الناعمة التي كنت أرقصها مع شارلوت، في سريرتي (اعتقدت أنك ربما تحب أن ... هنا ...)؟ ولئن كان الأمر كذلك هل شارلوت - يا إلهي هل راودها الشك، هل شعرتْ عندما كنت أقتربُ من شيء ما أمد يدي وألمسها بخطر، بالطرف الشاحب الرطب لتوقي؟ يوجد أناس لا تستطيع ولا تريد أن تتخيلهم يفعلون ذلك، ولكن الآن لا أستطيع ردع نفسي عن التفكير في العالم الليلي لـ (فِرن). لماذا شارلوت وإدوارد ليس لهما أولاد؟ مَنْ منهم كان؟ حاكت الأسماء شبكة مضطربة في ذهني. بدأت أرى كوابيس كان أربعتهم فيها ينسابون ويتلوَّون، يجتمعون وينفصلون، يتبادلون الأسماء والوجود والأصوات كما في تخيل سريالي فاحش. استلقيت على السرير في غرفتي وحاولت تخيُّل إدوارد هنا أكثر شبابًا، مخلوب العقل وهو يراقب والد شارلوت العجوز، منتظراً

موته ليستولي على (فرن) بإغواء ابنته، ربما على هذا السرير بالذات. نهضتُ فجأة كما نهضت في ذاك اليوم من السرير الآخر. كنت أتصبب عرقًا. البنت التي وضعها خيالي المحموم بين ذراعي إدوارد لم تكن شارلوت. بعيداً في الغابة كان طائر ليلي يصدح. ستة عشرة عاماً، يا إلهي، لا يتجاوز عمرها ستة عشر عاماً.

مستحيل.

طرأ تغيرٌ مفاجئ على الطقس. استيقظتُ في منتصف الليل على صخب سفينة تصارع العاصفة، وسارية محطّمة، وبحّارة يصارعون القدر ويصرخون في قلب الرياح. في الصباح، عندما نظرتُ من نافذة المطبخ كان المشهد قد استعاد نظامه. اقتلعت العاصفة شجرة، ارتمت على الأرض، جسماً كبيراً انجرَّ إلى الشاطئ، في شبكة من العلّيق والأغصان المجدولة على مقربة من السطح الموشوري للمسكن. كان الجو كئيباً، والوحل في كل مكان وسحب بلون الغرانيت معلقة فوق الحقول، وفحيح الأفاعي تحت موطئ قدمي. لقد انتهى الصيف.

يجتاز إدوارد الدرب بمعطف مطر رثٍّ، وقبعة مضحكة من قماش التويد «يالها من ليلة إيه» كان يتأمل الشجرة الساقطة. «يا إلهي، كانت شجرة قريبة على وشك قتلك». كان يصعب عليَّ النظر إلى وجهه. وبدلاً عن ذلك أمعنت النظر إلى أطرافه، الحذاء البني، والبنطال الكتّاني المضلّع، وأكمام معطفه. إما أنني أتخيل أو كان حقًّا ينكمش ويصغر، كانت ملابسه تبدو مصنوعة لشخص يعمل في تقصير القماش (انكماشه) (Shade Fuller)(*).. بدا شاحبًا، بشرة رمادية يلطخها البرد. ليلة قاسية أخرى. أين يحتسي مشروبه؟ مرة أو مرتين لمحته يتسلل إلى بار الفندق في القرية، ولكن فيما بعد كان يبقى في البيت. ربما احتفظ ببعض الزجاجات

(*) م. Shade Fuller: نوع من العمل يقوم به العامل في نقع القماش من أجل تقصيره.

خبأها تحت باب أرضي خلف خزانة البياض كما يفعل المدمنون البيتيُّون ـ كما يقال ـ أو لعله يشرب علناً مديراً ظهره لنظرة شارلوت. قال: «زرعت هذه الشجرة بيدي لوت أي (شارلوت) وأنا في يوم من الأيام» ونظر إلى الأعلى وهو يبتسم ابتسامة بلهاء، بلا اكتراث. «لقد انتهى الصيف». صدر عنه شيء ما، نوع ما من التماس صامت. من أجل ماذا، من أجل التعاطف؟ خشيت أن يبدأ بالهذيان ثانية، حول النساء، والحياة والحب. شعرت بتدفق حارٍّ من الاشمئزاز مثل كتلة تسد حنجرتي. أحس بذلك، فضحك وهو يهز رأسه وقال: «إنك رجل قاسٍ». للحظة كنت عاجزاً عن إدراك معنى التشديد، ثم أدركت أنه كان متعاطفاً معي. بحق الإله، حدّقت به، على ركبتيك يا جبان ـ واكتفى بالضحك ثم ابتعد.

عندما ذهبت في ذاك المساء إلى البيت صادفت في الصالة رجلاً أحمر الوجه مفلطحه يرتدي بزة زرقاء. نظر إليَّ فوق رؤوسنا كان المرحاض لا يزال مصطخباً إثر زيارته. قال بنبرة مرحة: «أي طقس تعيس» ذهبنا معاً إلى غرفة الاستقبال؛ كان الشاي يُقدَّم هناك على شرف الضيوف. كان إدوارد متكئاً على معطفه في لباسه ذي المربعات (كاروهات) والمصنوع من قماش التويد والكتان وقد دسَّ يديه في جيبيّ بنطاله وهو يتلوّى مثل أرنب ساحر. حاولت أن أرى فيه رجلاً جذاباً قادراً على الإغراء. وكان الأمر سهلاً بشكل يبعث على الدهشة. ينسل إليها شاباً أملس الشعر مسترسله.

كانت شارلوت تنظر إليَّ بيأس صامت: كانت قد نسيت أنه يوم الأحد. كان الزوار قلة، وما كنت لأفوِّت على نفسي هذا الزائر. قدمت نحونا مسرعة، يداها ممدوتان مثل شخص قادم لإيقاف قتال. «السيد برونتي يعمل في تجارة الحبوب». نظرتُ إلى السيد برونتي باهتمام. غمز بعينه من جديد.

قال إدوارد: «لنأخذ مشروباً». التفتت شارلوت بسرعة: «الشاي جاهز».

هزَّ رأسه: «آه، صحيح».

دخلت أوتيلي برفقة الولد.

كان السيد برونتي كثير الكلام، أكولاً؛ كان يهز الطاولة بصخب ضحكته، إنه يسعى لشراء المشتل. شعرت أنه يضع يده على أسرة لولس. عندما ذُكرتْ مشاكل العمل تظاهر بخجل أخرق. تفحصته جيداً. لقد رأيته من قبل: كان نمطًا، نوعًا من الناس. بعد أن اطمأن على المال انطلق يبحث عن الأسلوب وعن الرقي. كان ينظر إلى أسرة لولس بنوع من تسامح حنون. لقد أحبهم، صفقة ملائمة. لا شيء يمكن أن يوقفه. بلطف، بمحبة، كان يود تخليصهم من (فرن). لا بدَّ أنه يود أن يرقى إلى وضع إرستقراطي، ويغيِّر اسمه، ربما يربي حفنة من البنات الشاحبات العصبيات ليجلسن في هذه الغرفة يحكن بالسنارة ويكتبن قصصاً هستيرية. قال جاداً: «إنه عرْض منصف.» وضحك.

كانوا ينظرون إليه والكآبة تعلو وجوههم، ربما بوجوه بلهاء مثل عصابة من المتوسلين جاءت من المدينة المسلوبة تطلب الرحمة أمام خيمة الإمبراطور. لم أكلِّم أوتيلي منذ عشية اليوم الذي قادتني فيه إلى غرفة نوم أسرة لولس (شارلوت وإدوارد. سعل إدوارد: «أوه، هاهو يبدأ.

شارلوت التي كانت تحدِّق بالرجل العريض الأزرق وكأنها مسلوبة الإرادة، جرَّت نفسها للخروج من غشيتها.

قالت للسيد برونتي وهي تشير إليَّ: «هل تعرف، إنه يؤلف كتاباً. عن. نيوتن. عالم الفلك».

اتجهت العيون كلها نحوي، وكأنني، في تلك اللحظة، هبطت من السماء بينهم.

قال السيد برونتي: «الآن».

نظرت إليّ شارلوت تستعطفني «ألستَ؟».

تمتمت. «كنتُ. «انتظروا. أجبت: «كنتُ. «كنتُ مرتبكًا. «يبدو أنني تخليت عن ذلك...»

أوه؟ تتدخل أوتيلي متألقة ببرود جليدي. «وماذا تعمل بدلاً من ذلك؟»

لم أنظر إليها.

قال برونتي بعد تردد. «حسنًا كما كنتُ».

قالت شارلوت: «تخليت عن الكتابة؟ «بعينين حزينتين ووجه صاغَ القلبُ شحوبه، وهاتان اليدان، لعلها خرجت من لوحة «كراناك»(*) «حديقة الملذات السوداء».

أجبتُ: «مثل نيوتن»، «لقد تخلى هو أيضًا».

«هل تخلى حقًّا؟»

كان إدوارد يقول: ليس المال هو المشكلة، «وليس هو الشيء الجوهري» والسيد برونتي وبينما هو يقتطع الدهن من قطعة من لحم الخنزير ملأ فمه وتظاهر بأنه لا يبتسم.

قلت: «نعم»، «لقد تخلى عن عمله وفلكه، وعن كل شيء. كان قد بلغ الخمسين من عمره عندما أصابه مسٌّ من الجنون».

قالت: «لم أكن أعرف ذلك». نظر مايكل حوله بحذر وأدخل في فمه نصل

(*) م. كراناك رسام ونحّات ألماني من عصر النهضة.

سكينه المغموس بالمربى. قال إدوارد متشكيًا «لِمَ حدث ذلك؟»، «فرن هي شأن عائلي»، يوجد تقاليد هنا.

«بسبب» صاحت أوتيلي بحدة «كفى!» ويبطء يسحب مايكل السكين من فمه وهو ينظر إليها.

قال السيد برونتي بنعومة «أوه، صحيح، صحيح» «لقد أقامت أسرة غرينجرز في هذا البيت فترة طويلة».

يد شارلوت على عنقها العاري وهي ترتعد ارتعاداً خفيفًا.

أوه. إسحق، أنجدني. قلت: «كان لابدَّ له من التوصل إلى بعض الثوابت،» انظري إليَّ، لا تتوقفي عن النظر إليَّ، «بعض الثوابت المكان، الزمان، الحركة» خفقات، خفقات خفيفة، خفقات قلب ناعمة، يمكنها أن تكون نسبية وحسب، نسبية بالنسبة إلينا، عرف ذلك وكان عليه الإقرار به، وعليه أن يتركها تمضي، وعندما مضت آه يا عزيزتي، «مضى كل شيء معها». «آه».

عبر النافذة أبحرت سحابة قاتمة كبيرة.

قال برونتي وقد تراجع أخيراً: «حسنًا، ها أنا قدمت عرضي، آمل أن تنظروا فيه. «انقبض صدري. التفتت شارلوت نحوه بهدوء، كما لو أن شيئًا لم يكن وقالت: بالطبع، أشكرك».

تبادلوا أطراف الحديث، الطقس، الحصاد، ثم غادر. رأته شارلوت خارجًا. قال إدوارد متثائبًا» رجل لعين «تحت الطاولة لمست قدم أوتيلي قدمي، وانسحبت، ثم عادت بدون حذائها. أعتقد أنها أصيبت بهبة رغبة.

وقفت شارلوت في المدخل عند عودتها. «هل تبرق؟» التفتنا إلى النافذة بترقُّب. مطر، ضوء رمادي وغصن يهتز. لماذا أتذكر تلك المشاهد الصغيرة بكل

وضوح؟ لأنها تبدو وكأنها انتظمت بشكل مقصود، مثل مشاهد شارع ما، في ضاحية هادئة، في أمسيات صيف حالمة، يمكن لصندوق البريد هذا أن يبدو منتظماً وكذلك الحافلة المركونة وشجرة واحدة في قفصها السلكي وطابة حمراء تتدحرج ببراءة على الطريق الذي تندفع «اللوري» في نهايته. قصف فوق رؤوسنا، دويٌّ رعد هائل. قال إدوارد بلطف: «يا إلهي» والتفت إلى شارلوت وفي يده كأس من الويسكي صُبَّ للتو.

قال: «حسناً؟ مارأيكم؟» هزّت رأسها. قال: «تعرفين، ستبيعين عاجلاً أم آجلاً».

خيَّم الصمت، ومرة أخرى أحسست أنهم معرضون عني ينظرون في اتجاه شخص رفيع المقام أسود ومروِّع لا يراه أحد غيرهم.

قالت شارلوت بصوت يذوب عذوبة لا أكاد أسمعه: «نحن»، تقصد «نحن».

أصغيت إلى شجارهم طوال المساء، انصفاق الأبواب، وإرسال المذياع بأعلى صوت وفجأة يُسكَت وبين فترات صمت يُسمَع صراخ إدوارد. تصورت شارلوت بدموعها، بوجهها الذي يشبه زهرة غسلها المطر تلتفت نحوه متوسلة.

أكثر من مرة تحركت في اتجاه البيت بفكرة وحشية لأدعوه للخروج، ثم أعدل عن ذلك يائساً مثبّتاً مثل رسوم كاريكاتورية ثبتت أمامي.

انقطع المطر وغمرت الحديقة شمس متأخرة وفي المساء المبتل شرع عصفور أسود غريب بالغناء. شعرت أنني مريض تغلي في معدتي عقدة من الأعصاب.

أخيراً سمعت الباب ينصفق والسيارة تتخبط في الدرب مسرعة نحو المدينة. شربت كأساً من البراندي وذهبت إلى السرير. كنت لا أزال مستيقظاً عندما قُرِع الباب. هرعت لفتحه. ولكن لا أحد سوى أوتيلي. ابتسمت بخجل زائف. هل

يُسْمَح لي بالدخول؟ لم أجب وملأت لها كأساً من البراندي. رمقتني، وهي لاتزال تبتسم وتعض على شفتها. قالت: «اسمع. أنا آسفة بخصوص ذاك اليوم. كانت حماقة».

«لا عليك. أنا آسف لأنني صفعتك. هاك الكأس، على صحتك» جلست على الصوفا وأنا أضغط بالكأس على معدتي التي ما زالت تؤلمني. أشرت باتجاه البيت. «ألعاب نارية».

قالت: «كان ثملاً» كانت تتجول بلا هدف، تنظر إلى الأشياء ويداها في جيوبها. كان لابدَّ لي من الخروج. إنها جالسة هناك مخدرة حتى خياشيمها، تلعب كعادتها دور الضحية. يصعب التعاطف كل الوقت «نظرت إليَّ؛» هل تعرف.

كان ضوء النهار يخبو بسرعة. أضاءت المصباح ولكن بلورته انفجرت. قالت بضجر «يا إلهي». جلست إلى الطاولة ودسَّت يدها في شعرها.

قُلت: «ما الحكاية، هل سيبيعان المزرعة»؟

«أعتقد أنهما سيضطران إلى بيعها. حظهم عاثر مع برونتي. سيحصل عليها، لقد أفسده المال».

«ماذا ستفعلين عندئذٍ»؟

«لا أدري» ضحكت ضحكة خافتة وقالت بما تسميه صوتها الضفدعي المشوش: «هلا قدَّمت لي عرضاً ما؟ أوه، لا تبدو مذعوراً هكذا، مجرد مزاح. «نهضت وجالت في الغرفة. كنت أسمع الحفيف الناعم لانزلاق ملابسها وهي تخلعها. ذهبتُ ووقفتُ في المدخل، جلست على السرير وهي تحدق أمامها في ضوء المصباح يداها مشبوكتان على الغطاء مثل تمثال. أدارت وجهها نحوي: «هيَّا»

لماذا عندما تخلع ثيابها يبدو وجهها أكثر عريًا من أي شيء في جسدها. قلت: «لا يبدو رجل بيعٍ وشراء إلى هذا الحد».

إدوارد؟ لم يكن هكذا من قبل».

«قبل ماذا»؟

استمرت في النظر إليَّ.

لعلني أبدو غريبًا بعض الشيء، العينان متضيقتان، والفك برز إلى الخارج.

ريبة، غضب، غيرة! إحساس بالأكلان لا أتمكن من بلوغه لأحكه. قالت: «لماذا فجأة تبدو مهتمًا إلى هذا الحد»؟

«أتساءل عن رأيك فيه. لم تذكريه أبدًا من قبل».

ماذا تريدني أن أقول؟ إنه حزين الآن».

جلست على السرير، إلى جانبها. الطائر مازال يغرد في الظلام، يصيبو إلى الخارج قلبه الغافل. قلت: «سأغادر». كانت هادئة تمامًا. أوضحت صوتي. «قلت، سأغادر».

«متى»؟

«قريبًا جدًا. غدًا، في نهاية الأسبوع، لا أدري. «كنت أفكر بشارلوت ـ أغادر: لا يبدو الأمر حقيقة.

«هكذا إذن». كان وجهها ملطخًا بالدمع. أخذتها بين ذراعي. كانت حارة ورطبة، كما لو كانت كل مسامة من مساماتها قناة دقيقة يسيل منها الدمع. قالت بعد صمت دام وقتًا: «أريد أن أخبرك، عندما صفعتني في ذلك اليوم وخرجت، استلقيت على سريرهما زمنًا طويلاً أمارس الحب مع نفسي وأنا أبكي. اعتقدت

أنك ستعود لتعتذر لي، وتضع كمادة باردة على وجهي. حماقة». سألتها: «من هو والد مايكل»؟

لم يبدُ عليها أي استغراب. بل أنها ضحكت: أكان هذا كل ما أستطيع قوله؟ «شخص اعتاد العمل هنا».

«ما اسمه»؟

«لا أذكر».

«ذهب بعيداً. وهكذا فعلت البنت. وتبنَّت شارلوت الولد، فهي لا تنجب».

كلا. كلا.

«إنك تكذبين».

في الحقيقة، لم تكن تصغي، كانت أذنها تلتفت إلى البؤس الذي استقر في داخلها. وضعت جبينها على خدي. قالت: «هل تعرف، أفكر أحياناً أنك غير موجود إطلاقاً، وأنك مجرد صوت، اسم ـ لا، ولا حتى هذا، مجرد صوت يمضي. أوه، يا إلهي. أوه، لا، غاضبة من نفسها، ومع ذلك فهي عاجزة عن إيقاف التنهدات التي بدأت تهزها، أوه لا وهي تنتحب، وارتمت بين ذراعي تسحق وجهها على وجهي. كنت مصعوقاً، كنتُ ـ لا ببساطة كنت مشدوهاً، هذا أسوأ ما حدث. الظلام كان وراءها، هناك في النافذة، ظلام صامت، لطيف في فضوله. جرَّت نفسها مبتعدة عني، وتحاشت النظر إليَّ. قالت وهي تلهث: «متأسفة»، ولكنني لم أقدم نفسي لأحد بهذا الشكل من قبل، ويؤلمني ذلك، «وهزَّتها التنهدات، مؤلم حقاً».

قلت: «كفى، كفى» مثل أهوج، «كفى، كفى» شعرتُ أنني مثل مَنْ أسقط

شيئًا ما بإهمال، وأدرك متأخراً جداً، مع القطع المتناثرة حوله، أن الشيء كان شيئًا ثمينًا مع ذلك. أنار النافذة شعاع من الضوء وعاود المطر هطوله من جديد باندفاع لطيف. مسحت أنفها بظهر يدها. والدموع مازالت تنهمر وكأنها لن تتوقف أبداً ولكنها لم تعد تبالي. «أخالني قد أتعبتك وأنك سئمت مني» قالت ذلك ثم تمددت واستدارت على جنبها، ونامت على الفور وتركتني وحيداً أداري صدمتي وقلبي البارد.

* * *

لا بدّ لنا أن نفترض أن إدوارد ذهب في تلك الليلة إلى المدينة، لا إلى القرية كما أوحي بذلك في وقت لاحق. يتألف الدليل الذي يبطل الاحتمال الثاني من شقين. أولاً: الاتجاه الذي سمعت فيه انطلاق سيارته. لو أنه اتجه إلى القرية، لغاب صوت السيارة بسرعة عندما هبطت إلى ما وراء منعطف التلة؛ وبدلاً من ذلك بقي مسموعاً لفترة طويلة، الأمر الذي يتناسب مع المحرك المتجه غرباً، على الطريق الرئيسي، وانزلاقه يكون أقل وضوحاً من انزلاقه على طريق التلة المؤدي إلى القرية. ثانياً: هناك الكمية الكبيرة التي استهلكها من المشروب، كما سيتضح ذلك فيما بعد. في ذاك الوقت يعرف أصحاب الفنادق والحانات في القرية، في الفنادق وفي الأماكن العامة الكثيرة جداً، يعرفون جيداً أنهم لن يقدموا له أقداح الويسكي المزدوجة التي كان يطلبها.

مع ذلك، يبقى ذهابه إلى المدينة - إن صح التعبير - بلا قيمة تُذكر للفترة الزمنية الممتدة جداً بين ساعة الإغلاق (٣, ١١ ظهراً، التوقيت الصيفي) وعودته إلى (فرن) في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر تقريباً. لأن ما حدث في تلك الساعات «الضائعة» لا يسعنا إلا تخمينه. هل التقى بصديق (هل كان له أصدقاء؟) ربما اجتمعا في بيته؟ فالمدينة لا تزخر بالمواخير، وبالتالي يمكن إلغاء تلك الفرضية. إذن عند الرصيف والسيارة مركونة بأضوائها المتوهجة، والمذياع الذي يدندن لنفسه وحيداً بائساً، ومن خلال الزجاج المعتم الصاد للريح النظرة الانتحارية الصارخة! هل جلس هناك وحيداً لبضع ساعات؟ لعله نام. لا يسع المرء إلا أن يتمنى له تلك السعادة.

لا يسعني الاستمرار. فأنا قد تخليت عن كتابة التاريخ.

الأمر الأول الذي لاحظته عندما استيقظتُ كان رحيل أوتيلي. كان السرير دافئًا والوسادة مازالت رطبة من دموعها. ثم سمعت السيارة تحرث الدرب ببطء شديد. لابدَّ أنني غفوت للحظة، والأصوات العالية الصادرة من بعيد تبدو جزءًا من حلم. فتحت عيني وبقيتُ مصغيًا في الظلام، خافق القلب. كان للصمت صفة الكارثة: لم يكن صمتًا بقدر ما كان أثرًا لكارثة. ذهبت إلى النافذة. كانت الأنوار تضاء في البيت، المصباح تلو الآخر وكأنما كان أحدهم يركض من زرٍّ إلى زرٍّ وقد فقد صوابه. ارتديت بنطالي وسترتي. كان الليل حالك الظلمة ولا يزال، يبعث رائحة الغار والأرض المخضلَّة. لمس العشب كعبي العاريين. كانت السيارة ملقاة عبر الدرب، كما حيوان معطوب، والمحرك ما زال يعمل. كان الباب الأمامي للبيت مفتوحًا ولا أرى أحدًا.

وجدت إدوارد في غرفة الاستقبال. كان جالسًا على الأرض فاقد الوعي وظهره مستند إلى الصوفا، رأسه مُلقى على الوسادة وراحتا يديه إلى الأعلى مبسوطتان إلى جانبيه. آثار تقيؤ مخضب بالدم مسفوح على البساط بين ساقيه الممتدتين. كانت زاوية بنطاله (بين الساقين) قد تلوثت. وقفت ونظرت إليه مشمئزًا مع إحساس بالنصر يجيش في داخلي. نصر، أوه، أجل. دخلت شارلوت واوتيلي مثل وجوه ميكانيكية تنبثق من برج ساعة. توقفتا عندما رأتاني. قلت: «سمعت أصواتًا». طَرَفَتْ عين شارلوت. كانت ترتدي ثوبًا عتيقًا من القماش ذي التربيعات، عارية القدمين. لا توحي الآن بأنها تخرج من لوحة «كراناك» بل من لوحة لـ «غريكو»(*). كان ثلاثتنا هادئين تمامًا وفجأة بدأ كل منا الكلام.

قالت أوتيلي: «لم أتمكن من الفهم».

(*) م. غريكو: رسام من أصل يوناني استقر في إسبانيا.

وضعت شارلوت يدها على جبينها «ماذا»؟

«ما من جواب».

«أوه».

«علينا أن ـ ».

«ماذا»؟

في الصالة ظهرت يدٌ على درجات السلم، قدم صغيرة عارية، عين. قالت أوتيلي: «لابدَّ لي من الذهاب إلى المدينة» «يا إلهي». نظرت إليَّ. مازالت آثار البكاء بادية على وجهها. ابتعدت، ابتعدت. صاحت: «أنت، عد إلى السرير» وتلاشت الصورة عن الدرجات. خرجت صافقة الباب وراءها، وفي لحظة سمعنا انطلاق السيارة. ارتشَّ الحصا على النافذة عندما وطأته الدواليب. ذاك الجدار، انظر، هناك. نظرت شارلوت «ذهبت من أجل» فكرت للحظة وهي عابسة الوجه؛ «استدعاء الطبيب». مشت عبر الغرفة كما لو أنها في حلم، تلتقط الأشياء، تمسكها للحظة، وكأنها تتحقق من شيء ما، ثم ترميها. تجشأ إدوارد، أو بالحري صوت أنين. وقفتْ بلا حراك مصغية؛ لم تنظر إليه. ثم ذهبت إلى مفتاح النور بالقرب من الباب، وأطفأت الأنوار الرئيسية بعناية وكأنها تقوم بعملية معقدة وضرورية. على طاولة منخفضة يوجد مصباح. لا يزال مضيئًا. اجتازت القاعة وجلست على كرسي مرتفع المسنَد قبالة النافذة. كان لكل شيء مظهر طقوس أدتها مرات عديدة من قبل. شيء ما، لعله نور المصباح، المظهر الغريب للأشياء التي تبدو مثل لُعَب، الحركات اليائسة المتقنة الأداء، حرَّكت في داخلي ذكرى قديمة لغرفة أخرى حيث كنت ألعب مع بنتين أولاد عم، بينما تجيء وتروح خطوات الراشدين فوق رؤوسنا تعد لمراسم شخص يحتضر.

غمغمت شارلوت: «أتساءل ما إذا كانت السماء تمطر» أعتقد أنها نسيت وجودي هناك. بصمت تقدمتُ ووقفت خلفها. كان وجهها ينعكس في النافذة السوداء. نظرت إلى شعرها الشاحب المتداعي؛ عند الصدر فتحة ثوبها كنت أستطيع رؤية الانزلاق اللطيف لنهدها. كيف يمكنني أن أصف لك تلك اللحظة، في ضوء المصباح، في آخر الليل، ورائحة القيء تمتزج بالعطر الحليبي لشعرها، وذاك الشيء الضخم الجالس هناك، البشع والمضحك، مثل فنان رصيف مقتول، ولا يوجد حولنا الآن سوى الظلام المنتشر، كل شيء مباح، كما في حلم مجنون. أحسست بدفئها عند فخذي. نظرت إلى صورتها المنعكسة في المرآة؛ لا بدَّ أن وجهيَ موجود هناك من أجلها.

قلت: «سيدة لولس، هذا غير ممكن، لا يُنتظر منك الإحاطة بذلك». كان صوتي أجشًا، نوعًا من نحيب كسول. أخبرها بشيء ما، بحدث ما، بجزء من العالم الكبير، بحجر ملوَّن، قطعة من كأس أخضر مغشًى، شباب من قبيلة «آيبو» في حوض الأمازون يقدمون أنفسهم مع قلامة أظافر أجدادهم. أوه، يا إلهي. اللهب الأول الصغير من الذعر كان يقضم داخلي. قلتُ: «اسمعي، اسمعي سأعطيك عنواني ورقم هاتفي بحيث إن أردت أو احتجت» وضعت يدي على كتفها وسرى أزيز صدمة حارة في أعصابي، وهمستُ «أوه شارلوت!»، وشعرت بكتلة سميكة مثل قلب في حنجرتي، وبالدموع تملأ عينيَّ، وبدأ طبل «الآيبو» بالقرع، وعلى طول الغابة السخية وعرضها كانت العصافير المتوهجة الألوان بمناقيرها الصفراء وعيونها السوداء اللامعة ترسل بصراخها المذعور.

تحركت، وأدارت وجهها نحوي طارفة العين، قالت: «متأسفة لم أكن أصغي». ماذا قلت؟

سمعنا عودة السيارة. كان الطبيب رجلاً عجوزاً مضطرب المزاج، جاء

«ببيجامته» ومعطفه المطري فوق كتفيه. رمقني بنظرة تنم عن غضب وكأنني مسؤول عن كل ما يجري. «أين هو؟ ماذا؟ بحق السماء لماذا لم تضعوه في السرير؟» فظ، طيب مع الأطفال، والعجائز من النساء يشغفن به. جثا على ركبتيه، وهو ينخر، وفحص نبض إدوارد. «أين كان يشرب؟» بدأت شارلوت بالبكاء وهي في حالة ذهول.

قالت أوتيلي: «في القرية على الأرجح،» وقفت ويداها خلفها، مستندة إلى الباب، وعيناها المتورمتان مغلقتان. كان مايكل جالساً على عتبات السلم، ينظر من خلال أعمدة الدرابزين. «هل كان هناك ليسمعني أعاهد المسكينة الذاهلة شارلوت؟».

الطبيب وأنا، وبمساعدة أوتيلي حملنا إدوارد وصعدنا به. فتح عينيه للحظة وقال شيئًا ما. الرائحة.

قال الطبيب: «دعوه ينام. ما من شيء يمكن فعله». التفت إلى شارلوت التي تنظر عند المدخل. «وأنت السيدة لولس، هل أنت بخير؟ هل لديك حبوب الدواء؟» بقيت تنظر إلى رأس إدوارد الغائص في الوسائد. أومأت ببطء مثل طفل. «حاولي أن تنامي الآن». ألقى الطبيب نظرة مرتبكة لا تُفهم، نحوي ونحو أوتيلي- يا إلهي، هل هو أيضاً عاشق لشارلوت؟ «سيكون بخير. سأعود في الصباح».

أوتيلي وأنا رافقناه إلى الباب. خيَّم الليل تنبعث منه رائحة الرطوبة والبحر البعيد. قلت له: «هل أوصلك بالسيارة؟» اندفعت أوتيلي أمامي «سأقوم بذلك». قال الدكتور وهو يلقي عليَّ نظرة وداع عابسة: «يجب مراقبته سيتداعى بسرعة بعد هذه الحالة».

كان ضوء الفجر الواهي يتسرب إلى الحديقة عند عودتها. خرجت لألتقيها.

كنت أقف عند النافذة أرقب عودتها وأنا أصغي منقطع النفس لسماع صوت ينبعث من الطابق العلوي، أخشى أن أغادر، ولكن كنت أخشى أن تجدني داخل البيت عند عودتها، فتمسك بي، وتقدم الشاي ونتكلم عن معنى الحياة.

قالت، بعيدة، متجهمة: «خدعة قديمة».

كنا حذرين مثل غريبين محتبسين في مدخل مخزن اتقاء من المطر المنهمر بغزارة. كان النورس يختال عبر المرج، تاركًا وراءه آثار خضراء بشكل القوس في الرطوبة الرمادية للعشب.

«يغذيها بذلك الشيء».

انتظرت؛

«أي شيء؟».

«فاليوم، سوكونال، لا أدري، بعض من تلك المسكنات. عاشت على ذلك العلاج ستة شهور. إنها مثل «زومبي(*)» ـ ألم تلاحظ؟».

قلتُ: «تساءلت،» «نعم».

التساؤل هي الكلمة المناسبة تمامًا.

بين الأشجار كان ينساب وهج أحمر بلون الدم. أحسست ـ لا أدري. أحسست بالبرد وفي فمي مذاق الرماد. شيء ما بلغ نهايته بارتطام ضخم وناعم.

قلتُ: «في بلدان الشمال يسمون ذلك ساعة الذئب». حقيقة واقعة! للأسف لم تكن شارلوت هنا لتسمعني. نتعلم الحيلة في النهاية. «ماهذا الذي أصابه؟».

(*) م. «زومبي» القوة التي تدخل أجساد الموتى فتحييها ولكن دون استعادة القدرة على الكلام والحرية. شراب مخدر.

«إدوارد؟» رمقتني بنظرة ساخرة مشفقة.

قالت: «حقًا أنت لم تعرف، كل هذا الوقت، لم تعرف».

«لماذا لم تخبريني؟»

ابتسمت، أو بالأحرى لوت قسمات وجهها بشكل ينم عن السخرية. وأشاحت نظرها عني. نعم، سؤال طائش. شعرت لبرهة أنني أشبه بطفل يضغط بوجهه على واجهة باردة من معرفة يمتلكها البالغ ولا يجود بها. كانت هي التي كبرت. هززت رأسي غير مبالٍ، وهبطت السلم. حلّق طائر النورس بعيداً مرسلاً صياحه المتقطّع في الهواء.

* * *

لم يبق لديّ ما أرويه. في ذاك الصباح بالذات حزمت من أغراضي ما أستطيع حمله وأقفلت باب السكن. تركت المفتاح في مغلف ثبته بدبوس على الباب. فكرت في كتابة رسالة قصيرة، ولكن لِمنْ أكتب، وماذا أكتب؟ وقفت في طريق البوابة، كنت أخشى أن تراني أوتيلي، وتلحقَ بي - لن أطيق ذلك - ألقيت نظرة عاجلة على البيت، الجميز، وتلك الكوة الصغيرة المكسورة فوق الباب التي لم يفكروا أبداً في إصلاحها. كان مايكل في الجوار. كبُر هو أيضًا، ومنذ الآن يمكن للمرء أن يميز في قسماته ما سيكون عليه ذات يوم، تحفُّظه، صمته، وخصوصيته التي لا يمكن اختراقها. لم يعد كيوبيد الذي يحمل السهم الذهبي والقوس، بل السيف الملتهب هو ما يليق به الآن. لوّحت له متردداً، ولكنه تظاهر بعدم رؤيتي. أخذت طريق القرية. كانت الشمس تشرق ولكنها متوهجة جداً؛ قد تمطر. ولون أوراق الشجر يتحول إلى اصفرار. وداعًا أيتها الحقول السعيدة.

سيارة طويلة قليلة الارتفاع صعدت باتجاه التلة. ضحكت: كانت سيارة أسرة ميتلرز. هل أدارت باني أنفها الصغير ونشقت الهواء والتقطت نفحة الكارثة؟ لعل شارلوت دعتهم. ماذا عرفت؟ مروا من جانبي بتزميرة من بوق عميق الحنجرة وهم ينظرون إليّ من خلال الزجاج المدخّن، أربعتهم مثل تماثيل لعرض الأزياء. لاحظت باني حقيبتي. قبل مرورهم التفتت نحو زوجها وفمها يعمل بشره.

في القطار سافرت داخل مرآة. كان كل شيء تماماً مثل المرة الأولى، المنظر الخلفي للبيوت، وأنابيب الصرف الصحي، وسحابة تجول فوق الخليج ولكن بترتيب معكوس. في عربة العشاء صادفت أسيد برونتي: ستصر الحياة على شدّ النهايات الرخوة. تذكر وجهي، ولكنه لم يتذكر أين رآه، صاح في (فرن) بالضبط! ولكز صدري بإصبعه. سُرِرت. كان يبدو بخير، تبدو عليه الحيوية ولكن بدون تماسك، وكان مضحكًا بعض الشيء. تكلم عن إدوارد هامسًا وهو يهز رأسه. «أصابه في أحشائه، على ما أعتقد، الفتى المسكين ـ هل عرفت ذلك؟».

قلت: «نعم، أعرف؟».

في شقتي وجدت رسالتين بانتظاري، إحداهما تدعوني لمقابلة في كامبردج، والثانية تعرض علي وظيفة هنا. العقد لسنة واحدة فقط.

هل كان مجيئي جنونًا؟ كل ما يحيط بي كان مناسبًا. ما من شيء يمكن أن أتمناه، باستثناء، ولكن لا، لا شيء، الربيع فصل ضار ومجنون بعض الشيء في هذا الجزء من العالم. في الليل يمكن أن أسمع تصدع الجليد في الخليج وقرعًا عميقًا هائلاً ومتأوهًا، وكأن شيئًا ما هائلاً كان قد ولد هناك.

سمعت أيضًا تجمع الذئاب بعيدًا جداً في الأقطار المتجمدة، تعوي وفي عوائها ما يشبه «أوركسترا». والمنظر، إن جاز تسميته هكذا، يتصف بجمال مبيَّض

غريب، أكثر مما ينبغي لذوقي الراهن. تثبت أزهار صغيرة في التندرة(*) نحيلة وشاحبة كما أرواح فتيات بعد موتهن، ورأيت أيضاً بزوغ الشفق القطبي.

أوتيلي تكتب أسبوعياً. قبضت على نفسي وأنا أصغي إلى خطوات ساعي البريد وهو يصعد السلم لاهثًا. أخبرتني مرة في (فرن) أنها عندما تكون بعيدة مني تشعر وكأنها فقدت ذراعًا ـ ولكنني أبدو الآن مثقلاً بطرف إضافي، شيء ما أخرق وكبير لا أعرف ماذا أفعل به، وأين أضعه، ويبقيني مستيقظًا في الليل. أرسلت لي صورة تصورها جالسة على شجرة سقطت على الأرض، في ضوء شمس شتوية. تنظر بهدوء بدون ابتسام، ويداها مبسوطتان على ركبتيها، ويظهر أيضاً في شيء ما هنا، في هذا الوضع، هذه النظرة البريئة فجأة ويملؤها الحنان، ما كنت أفتقده عندما كنت معها؛ إنه على ما أعتقد معنى تفردها الأساسي ـ وجودها المغاير ـ وقد صار لاذعًا وثمينًا إذ يبدو أنها تقدمه لتحافظ عليّ وترعاني، هي في دبلن الآن، وتعمل في مخزن. تشعر أنها تبدأ حياتها للتو.

من كل الصور الذهنية التي أحتفظ بها منها أختار واحدة. ليلةَ صيف، واحدة من ليالي تموز البيضاء. كنا نحتسي مشروبًا ثمَّ نهضت (لتبول) كان المرحاض معطلاً، كما كان وضعه في الغالب، وكانت قد جلبت من المرآب، لضمه إلى كنوزها الأخرى، وعاءً من الخزف كانت تسميه بأسلوب طريف الوعاء ـ البهيج. كنت أنظر إليها وهي مقعية هناك في الضوء الخافت، مرفقاها على ركبتيها ويداها في شعرها، مغمضة العينين وهي تعزف موسيقا حجرة رنانة وبدون أن تفتح عينيها تعود إلى السرير متعثرة، تجثم على ركبتيها لتقبلني وهي تتمتم في أذني، تستلقي من جديد، شعرها في كل مكان، نظرت واستولى عليها النوم وهي تصك أسنانها

(*) م. التندرة: سهل أجرد في المنطقة القطبية الشمالية.

بشكل خفيف. ليست صورة تماماً، أهي كذلك؟ ولكنها موجودة فيها ويمتنع انتزاعها. وقد احتفظت بها كنزاً ثميناً.

هي حامل. أجل، أكثر الخواتم شيوعاً، ومع ذلك فهي الخاتمة التي لم أتوقعها. انتظري. ليس هذا صحيحاً. لديّ سر أود الاعتراف به. تلك الليلة الأخيرة معها عندما كانت تنتحب بين ذراعيّ: أخبرتك أنها استسلمت للنوم فوراً، ولكنني كذبت. لم أستطع مقاومة عريها المضرج بالدموع والاختلاجات المشبوبة بالهوى لنحيبها غفرانك يا الله. أعتقد أن ذلك كان عند بدء الحل وهي أيضاً تعتقد ذلك. فيض من العاطفة، فيض من تضليل الذات؟ على الأرجح. ولكن، على الأقل، يمتلك هذا التضليل أساساً في الواقع، الولد موجود هناك. مفهوم هذه الحياة الغريبة سر في بحرها الدافئ، يثير في داخلي رغبة الحياة - إلى الأبد أعني إذا كان ذلك ضرورياً.

والمستقبل الآن يحمل النبرة ذاتها التي كان ذات مرة يحملها الماضي بالنسبة لي. أنا نفسي حامل بمعنى ما، فيض من الوجود يتفجر في قلبي.

قررت أن أشرح لك، يا كليو، وأشرح لنفسي، لماذا أهملت كتابي. هل فهمت؟ كثيرة هي الأشياء العصيَّة على القول: كل الأشياء المهمة. أمضيت صيفاً في الريف، ضاجعت امرأة واعتقدت أنني عاشق لأخرى وحلمت بدراما بشعة، وأخفقت في رؤية المأساة المألوفة التي تُلعب في حياتنا الفعلية. قد تتساءلين، ما الصلة بين كل هذا والتخلي عن الكتاب؟ لا أعرف، أو على الأقل لا يسعني قوله في كلمات كثيرة. كنت أشبه برجل يعيش تحت الأرض صعد إلى الأعلى بحثاً عن الهواء، بهره الضوء، ولم يستطع العثور على طريق العودة إلى حفرته. مشيت مجهداً ووطأت الأرض المألوفة متمتماً. لقد ضعت.

بقي إدوارد حيًا طيلة الشتاء. كان في أسوأ أحواله لا يغادر مضجعه. كتبتْ: لا يمكنك التعرف عليه. وكأنني عرفته يومًا. حاول أن يحدثني عن الموت ذات يوم. أوه، ليس بشكل مباشر بالطبع. لا يمكنني تذكر ما قال، ولا الكلمات التي استعملها. كان الموضوع يتعلق بالريف، بالزراعة، أشياء عادية. ولكنني أفترض أن ما كان يتكلم عنه، كان إحساسه بالوحدة الآن مع كل تلك الأشياء الصامتة حوله، حصان، شجرة، بيت، التي تتحمل حيواتهم بصمت ونضال مستسلم، وتموت وحدها ولا أحد يلاحظ موتها. أتمنى لو رفعت له نصبًا أفضل من ذاك الذي بنيت، في تلك الصفحات الكثيرة جداً، ولكن كان عليَّ أن أريك كيف فكرت فيه آنذاك، كيف تصرفت، حتى تري قسوته، ذاك العمى المتصلب.

لم تأت على ذكر شارلوت. كان ينبغي توقع ذلك. أطلت التفكير في بعض الكلمات، تلك الرموز سقوبة(*)، على سبيل المثال.

ماذا أعمل؟ أن أجد ذاك الصدع بين الصخور وأنزلق عليه مرة أخرى إلى ذاك القبر الحميم والمريح؟ آمل أن لا أفعل. لا أفعل إذن، البدء من جديد، وتعلم العيش هنا، في الضوء؟ شيء ما يتحرك تحت الجليد. أوه، لست يائسًا، إطلاقًا. أحس بالربيع حولي، بتفاهته، بالقدرة اللامبالية. في تلك المناطق الشمالية المتجمدة تزدهر العواطف. أقف أحيانًا، أنظر بإمعان إلى تلة بيضاء وخزف السماء الرقيق وراءها. وأشعر بإحساس بـ . . . . . بشيء ما، لا أدري تظهر كل أنواع الأشياء على تلك الشاشة البيضاء: بيت، شجرة كستناء، نافذة معتمة مع وجه ينعكس في زجاجها. أوه، وأشياء أخرى، كثيرة يصعب ذكرها كلها. هذه العروض الشخصية تبدو مثل دعوة. عُدْ إلى (فرن). أؤسس بيتًا، أقوم بمشروع واسع، مع أوتيلي؛ مسكينة شارلوت، الصبيان، لأنني أشعر أنه سيكون ولدًا ـ يجب أن يكون ولدًا ـ

(*) م. سقوبة ترجمة أعطاها القاموس لكلمة Succubus شيطانة، زُعِمَ أنها تجامع الرجال أثناء نومهم.

يصبح صاحب مزرعة، ويرتدي التويد، ويتكلم عن الطقس ويحوم بالجوار وهو يعلك قشة؟ .

مستحيل، لا فرق، سأعود. وفي النهاية خطر ببالي في تلك اللحظة، وفي نهاية المطاف، سأعود إلى الكتاب من جديد وأنجزه: مثل هذا التخلي لا ينتمي لهذا العالم إلا أنني متردد. هل سأغادر ثانية، وأترك بحثي وكتابي وكل شيء دون إنجاز؟ هل سأستيقظ خلال شهور، خلال سنوات، مهزوماً وخائباً في وسط خراب جديد؟ .

دبلن، ١٩٧٩ ـ ١٩٨١

ملاحظة:

إن رسالة نيوتن «الثانية» الموجهة إلى لوك هي محض خيال النبرة ومقطع ما من النص أخذته من هوغوفون هوفمانستال Ein Brief (رسالة لورد شاندوس) .

الطبعة الأولى / ٢٠٠٤

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



سعر النسخة داخل القطر ٤٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٩٠ ل.س
٢٠٠٤